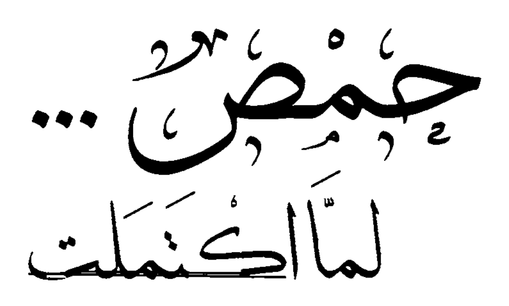
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

حمص... لما اكتملت



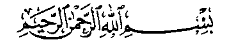
نداء الدندشي



نداء الدندشي



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL



الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0835-6



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

الإهداء

إلى أحرار سورية

هنيئاً وصولكم لمرحلة ما بعد الموت

نداء

المحتويات

الفصل الخامس

الفصل السادس

ملحق الصور

المقدمة

شكل القرن التاسع عشر منعطفا حاسما في تاريخ العالم العربـــي، انتقلت فيه المدن من وضع حضري ثابت استمر عدة قرون دون أن يحصل تغيير يذكر، ســـواء في بنية المجتمعات القائمة، أو في مجمل الانتاج الإنساني، إلى وضع حضري متحرك شمل كافة وجوه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، التي انعكست بـــدورها على الابداع المعماري، ما أعطى المدن مظهرا جديدا يختلف بالشكل والمادة عمـــا كانت عليه المدن في السابق. وان ظهر هذا التغيير بأعلى مراحله في المدن الداخلية من سورية فلأنها حافظت لفترة طويلة من تاريخها على طابع استمد شروطه مـــن البيئة المحيطة، والمحيط الجغرافي الملاصق لها.

بكلمة أوضح، ان ما تم انجازه في العصور السابقة أصبح الآن حالة فريـــدة لا وجود لما يماثلها، ومن الصعب اعادتها ثانية في حال تضررها، خاصة في ظل غياب شروط نشأتها التي رافقت بدايات العمارة فيها.

وان كنت أتحدث الآن عن حمص القديمة، فلأنها بالأصل لم تأخذ حقها مـــن البحث والدراسة كمكان فريد وله خصوصية لا تضاهى، والأهم وجـــود دافـــع وشعور لا يمكن مقاومتهما في ظروف تواجهنا كسوريين، اذ لا حياد فيما يجري، ومن يملك أداة دفاع ما فعليه أن يستخدمها في المجال الذي يعرفه، أو يتقنه. والقاء الضوء على عمارة المدينة القديمة بحمص أمر ملح الآن، وأمانة ملقاة علـــى عنقـــي طالما أني أملك المعلومة التي سيأتي دورها يوما ما، فالعالم يجب أن يعرف المدينة التي يسمع عن حصارها من عدة أشهر، ولا فكرة لديه عما يُدك ويُدمر من عمارتهـــا، أيضاً، يستحق أهل حمص مع هذا الصراع المرعب الذي يعيشونه ويعانون منه، أن يغتنموا من الزمن لحظة جميلة يشعرون فيها ليس بالأسف على مدينتهم وأرزاقهـــم فقط، لكن بالاعتزاز والفخر بعمارة وذوق أجدادهم، بعد أن كشـــفت، بعملـــي هذا، اللثام عنها وأظهرتها للملأ.

توطئة

حين أممت حمص كدارسة للآثار، وتجولت في أزقتها مستطلعة هذا البنـــاء وذاك، لفت انتباهي فقر أبنيتها بالعناصر الزخرفية الجميلة التي اشتهرت بها المنشآت والـــدور القديمة في المدن السورية كدمشق وحلب. ورغم هذا أسرتني تلك الخصوصية التي تتميز بها أبنيتها، العامة منها والخاصة، ورغم أنها تعكس، بشكل مباشر، وضعا اقتصادياً سيئا عانت منه هذه المدينة، الا أنها تبرز ذوقا خاصا، بسيطا وفريدا في العمارة. فقد شـــدني وأنا أسير في دروبها وأزقتها ذلك الغموض الشفاف الذي يطل من الواجهات البازلتيـــة الصماء المتصلة بسياق بديع لا يقطعه إلا قوس باب وشّي بحجارة بيضاء هنـــا، أو واجهة عليا لدار مفتوحة على الشارع المقابل زينت بمداميك من الحجارة الكلسية، تشي للزائر بأن نهاية عصر من الزمان ولت، وبداية عصر انفتاح حضري قد أتت.

ودفعني هذا للتعمق فيها. الا أني اصطدمت بعدة عوائق أصبحت هي حافزي لإنجاز هذا العمل.

1- قلة الدارسين الأثريين لهذه المدينة. فباستثناء كتاب "الموجز في تاريخ حمـــص وآثارها" للأستاذ ماجد موصلي، والدراسة التحليلية التي قام بها كـــل مـــن الدكتوران عماد الدين المصري والدكتورة جاكلين طقطق في إطار عملـــهما لنيل درجة الدكتوراه في العمارة[1]، ثم كتاب "حمـــص، درة بـــلاد الشـــام" للأستاذين، فيصل شيخاني، ومنذر الحايك، وأخيرا كتاب "مدينـــة حمـــص، وأوائل المهندسين في ظل الخلافة العثمانية"، للباحث محمد غـــازي حســـين آغا[2]. لم أعثر في المكتبة على كتاب يوصف عمارتها سوى ما ذكره الدكتور عبد القادر ريحاني في كتابه "العمارة العربية الإسلامية" حين تعـــرض لـــذكر بعض أبنيتها وآثارها في سياق موجز جداً وبسيط.

بينما اختصت الكتب الأخرى بدراسة تاريخ المدينة. ككتاب "تاريخ حمص" للخوري عيسى أسعد ج1، والجزء الثاني الذي أتمه ابنه السيد مـــنير عيســـى

أسعد. ثم سلسلة الكتب الوثائقية الهامة للأستاذ نعيم الزهراوي[3]. إضافة إلى كتب تحقيق بعض المذكرات الخاصة، منها كتاب "يوميات محمد المكي بن الخانقاه" حققه الباحث عمر نجيب العمر ونشره المعهد الفرنسي لدراسات الشرق الأدنى، وكتاب "من يوميات مطران حمص للروم الأرثوذكس أثناسيوس عطا الله" حققه المهندس نهاد سمعان، التي تلقي بعض الضوء على أعمال العمارة والترميم التي كانت تجري زمن كتابة المذكرات، وكذلك تتعرض من بعيد لبعض مجريات الحياة الاجتماعية في حينها.

2- التطور السريع للعمارة فيها، إن شئنا تسميته هكذا، الذي اكتسح كافة شرايين ومرافق المدينة القديمة، ولو تم الحفاظ عليها كما يجب، لأصبحت مدينة حمص القديمة واحدة من الدرر التراثية في العالم العربي.

3- خصوصية العمارة التقليدية فيها، واختلافها عن نماذجها في كافة مدن الشام، مع احتفاظها بالعناصر الرئيسة لهذه العمارة

4- أخيرا، الشعور بالوفاء لمدينة أقيم فيها منذ عشرين عاما، أشرب ماءها، وآكل من خبزها.

تنويه

1- قدم كل من الدكتور عماد المصري والدكتورة جاكلين طقطق دراسة تحليلية مفصلة عن عمارة بيوت حمص التقليدية، وهي أفضل ما كتب حتى الآن عن عمارة المدينة، وبناء عليها نالا درجة الدكتوراه في الهندسة، نشر قسم منها ضمن الكتاب التاسع من سلسلة دراسات الأستاذ نعيم زهراوي.

2- كتاب أوائل المهندسين للأستاذ غازي حسين آغا يقترب من كتب السيرة الذاتية لأحد مهندسي المدينة.

3- قدم الباحث الجليل نعيم سليم الزهراوي سلسلة مؤلفة من تسع كتب وثائقية عن حمص، أدرج فيها صورا عن كافة الوثائق التي يملكها أو اطلع عليها وتتعلق بكافة مجريات الحياة في المدينة خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.



الفصل الأول



حمص القديمة

حين نتكلم عن المدن القديمة في عالمنا العربـــي، فذلك يعني بالدرجة الأولى، البيئة، والإنسان. البيئة من حيث تكيف المدن القديمة مع المناخ السائد في المنـــاطق التي نشأت عليها، وإيجاد الحلول الملائمة التي تتصدى للتقلبات المناخية على مـــدار السنة، أما الإنسان، فيعني المتطلبات التي تطورت المدن لتلبيها، كحاجات أساســـية لمعيشة الإنسان، ضمن شروط راحته، وانسجامه مع محيطه، وهي بهذا تخالف المدن الإغريقية التي أخضعت الإنسان لشروطها، فالتقاطعات الحـــادة لشـــوارع المـــدن اليونانية المستقيمة والمتعامدة، تقدم الحلول الهندسية والمنطقية التي تختصر المسافات، وتوصل النقاط المتباعدة بأقصر السبل، إنها وببساطة تضع الإنسان أمـــام العمليـــة الحسابية، واحد+ واحد=اثنان، فهي مدن قاسية لم تنم مع تطور الإنسان فتواكب متطلباته، بل أنشأها قادة عسكريون متحفزون، فجاء تنظيمهـــا مناســـبا لـــنمط معيشتهم، وطرق تفكيرهم فالمدن الاغريقية واضحة لا يجد المرء كـــبير عنـــاء في اكتشافها ومعرفة أسرارها، فنقطة البداية توصلك إلى نقطة النهاية، وضمن خطوط

منتظمة لها حساباتها الدقيقة، والمتقدم يعرف طريقه تماماً وبالتالي يتهيأ لما سيعترضه. ببساطة هي الحل الأمثل الذي يقدمه العقل بقوانينه الصارمة التي لا تقبل الجدل. وهو نفسه الحل الذي خرجت عنه كافة مدن العالم فيما بعد، بما فيها مدن اليونان التي ابتكرت عبقريتها هذا المخطط (صورة رقم 1).

بينما تخالف مدننا القديمة هذا النظام وتبتدع لنفسها حلولا أكثر عاطفية، فهي مدن نشأت ونمت عبر التاريخ وخضعت خلال تطورها لتجارب الإنسان عبر الزمن، ضمن الشروط الطبيعية والظروف المناخية للمكان الذي أقام فيها مدينته. فتوصّل خلال مسيرته الحياتية الطويلة لابتكار الحلول الملائمة للتقلبات المناخية الحادة ضمن الحيز الجغرافي الذي يعيش فيه، بحيث أصبحت حياته أقل مشقة، وأكثر سهولة ضمن الإمكانات الحضرية المحدودة والمتوفرة لديه، في عصر لم يعرف الكهرباء التي أخذتنا إلى ما نحن فيه الآن. واقتصرت التدفئة فيه على مواقد الحطب والفحم، والتبريد على أساليب العمارة، وارتبطت الرطوبة بالشتول المزروعة في أفنية المنازل بظلالها الطبيعية، والبساتين الخيرة المحيطة بالمدن. لقد نشأت مدننا مع الإنسان، وتطورت معه، ولم تبن بسرعة لأغراض عسكرية محضة، فجاءت ملبية لحاجات الإنسان الحياتية الأساسية بحيث لا تعطل تقلبات المناخ الحادة نشاطه، فهي تمنحه الدفء شتاء، والظل والرطوبة صيفا. وتوفر له الأمن والحماية المطلوبين، إضافة إلى الرفاهية التي يسعى إليها ضمن شروط امكاناته الاقتصادية، بقليلها ووفرتها.

فالمدن بطراز بنائها ونظمه تتصدى لعوامل المناخ، إذ يؤمن هذا النظام حماية لها من الريح الشديدة، فشوارعها تلتف بزاوية، نحو الشمال، أو باتجاه الجنوب، في المناطق المشرعة للريح وتقف جدران البيوت الصماء كصادات تتلقى الصدمة الأولى للرياح، التي ترتطم بها أثناء اندفاعها داخل المدينة، فتخف حدة سرعتها، ويقل تأثيرها على المارة في الطرقات، وكذلك على الساكنين في الدور المفتوحة على الفناء الداخلي. وتتقارب مساكنها، فتؤمن الظل المطلوب لمدن ذات صيف طويل يمتاز بحرارته المرتفعة، ومناخه الجاف. كما تؤمن بعضا من الدفء في فصل الشتاء الرطب والبارد، هنا يبرز وبوضوح الدور الهام للأفنية الداخلية التي تخزن برودة الليل صيفا، ثم تدفعها في النهار نحو الفراغ المجاور للطرقات والأزقة،

وينعكس هذا الدور شتاء، بينما تتولى الأشجار المنتقاة بعناية فائقة، والشتول المزهرة مهمة ترطيب وتنقية الهواء الداخل للمنازل المحيطة، أو المتجه نحو المدينة، ما يؤدي لاعتدال الحرارة في مدن تقع على تخوم الصحراء بمناخها القاسي، وشدة الفروقات الحرارية السائدة في أجوائها سواء بين الليل والنهار أو بين الصيف والشتاء.

وهنا تلعب بحرة المياه التي تتوسط الفناء دورها الحيوي في تأمين الرطوبة المطلوبة، وقد يتولى بئر المياه هذه المهمة حين يخلو الدار من البحرة، فيلجأ السكان لرش المياه صيفا على ارض الفناء والشتول المزروعة فيه لزيادة مستوى الرطوبة صيفا، علما أن الأشجار الخضراء من مصادر التلطيف الحراري الطبيعي، شيء آخر لا يجب أن يغيب عن البال الا وهو الروائح الذكية لهذه الشتول والأشجار، هذه الروائح التي أضفت على المدن سحرا لم يغب عن ذاكرة ساكنيها حتى بعد هجرهم لها لسبب أو لآخر. ببساطة، هي مدن إنسانية بكل ما في الكلمة من معان، أوجدها الإنسان، فنمت لتلبي حاجاته، ولتؤمن له راحته.

وتتواصل مسالك مدننا القديمة في نقاط متعددة لتقرب المناطق المتباعدة بمنعطفات بسيطة، وتتشعب دروبها وأزقتها، وتتقارب الجدران لتقدم المزيد من الحميمية التي اتسمت بها مجتمعاتنا المحلية.

انها مدن نمت بتلقائية تلبي متطلبات النفس البشرية التي ترفض الخضوع لمعادلات ثابتة أو خطوط حادة مرسومة سابقا. فجاء تطورها، ونظامها بحيث يخدمان راحة الإنسان في حركته عبرها، كما أنها أكثر حميمية، تلبي الحاجات العاطفية للإنسان وتقدم له الدعم المعنوي والنفسي اللازمان له في رحلته عبر الحياة. ففي الطرقات الضيقة، والأزقة التي تتقارب جدرانها حتى تكاد أن تتلامس، يندر أن يتخطى العابرون بعضهم البعض دون القاء التحية، ومعرفة شؤون بعضهم وشجونها، ما يخلق فرصا أكبر للتعاون والدعم، فيقرب المسافات بين الناس، ويذيب إلى حد ما الفوارق الاجتماعية التي تأخذ في كثير من مظاهرها شكلا مغايرا للفوقية، التي عانت منها وبشكل حاد المجتمعات الغربية في أوربة والعالم.

لقد خلقت مدننا القديمة أنماطا من السلوك الاجتماعي التي فرضها الجوار المباشر والاحتكاك الدائم مستمدا جذوره من قيم المجتمعات السورية القديمة

المتجذرة حضارتها في المدن التي يعود تاريخها آلاف السنين للوراء على هذه الأرض، ومن المجتمعات البدوية التي جاء منها قسم من السكان أو جاوروها لفترة ليست قصيرة، عبر مسيرتهم في التاريخ الطويل. وعلى قمة هرم القيم التي سادت تلك المجتمعات برزت الغيرية، والحماية. وهذا لم يتوفر عادة في المدن ذات الشوارع العريضة، والنهايات الواضحة حيث تتباعد إلى حد ما الأواصر الاجتماعية، ويفرض نمط من التعامل يعزز الفردية، ويعزل إلى حد ما الفرد ضمن مكان صغير هو منزله، بعيدا عن نبض الحياة الذي كان مألوفا من قبل. وهو الشيء الذي افتقدته المجتمعات المحلية إثر خروجها عن نطاق المدن القديمة. لقد قدمت المدن الحديثة حلولا كالتي قدمتها المدن الإغريقية من الاستقلالية والتفرد، الا أنها غيبت روح الجماعة وما يتفرع عنها من عادات وقيم امتازت بها مجتمعات مدننا القديمة.

وتتشابه مدننا في العالم العربي عامة، وفي الشام خاصة، في مخططها الخاص، وينحصر الاختلاف بينها ضمن ما تفرضه الظروف الطبيعية، والبيئية، والدفاعية لكل منها على حدة.

فالاختلاف بين مدن سورية الداخلية الرئيسة، دمشق، حلب، حماه، وحمص، يكاد ينعدم من حيث التوزع الديموغرافي لكل منها، وشروط نشأتها. فهي ابنة مجتمعاتنا الشرقية ولها تاريخها القديم جداً والمتشابه في كثير من مجرياته، فظروف نشأة كل منها واحدة إلى حد ما، وجميعها عانت أخطار الغزو الخارجي خلال تاريخها الطويل بنسب متشابهة، كما انها تخضع لظروف بيئية متشابهة، وشروط دفاعية لم تختلف كثيرا فيما بينها عبر التاريخ. ويقتصر الاختلاف على مساحة المدينة، التي ارتبطت بعوامل ثلاث هي الأهمية التاريخية، المتغيرات الاقتصادية، وعدد السكان. كذلك في مادة البناء التي ارتبطت مباشرة بالمادة الخام اللازمة للبناء والمتوفرة في المحيط الجغرافي المجاور لها. فدمشق بنيت من اللبن المحضر من تربتها المحلية، بينما بنيت حلب من الحجر الجيري المتوفر في صخورها وفي الجبال القريبة، أما حمص فكان حجر البازلت مادة بنائها وهو الذي اعطاها صبغة خاصة بها ميزتها عن بقية مدن الشام، لكن سكانها لم يألفوا لون السواد الذي يميز حجر البازلت فأضافوا إليه زينة خفيفة من الحجر الكلسي، استقدموه خصيصا لهذه الغاية، ما اعطى المدينة خصوصية لا تضاهى، كما فرض موقع هذه المدن على تخوم

الصحارى القريبة حاجتها الماسة للأجواء الرطبة والنقية، فنشأت البساتين حولها لحاجة اقتصادية بالدرجة الأولى، ما لبثت أن تحولت إلى رغبة في تلطيف أجواء المدينة، تردف بشكل مباشر عمل أفنية المنازل الداخلية.

إضافة إلى كل ما سبق لعبت تضاريس الأرض التي نشأت عليها كل من المدن المذكورة دورا حيويا في تحديد الشكل الخارجي للمدن وحددت مسار أسوارها، وبالتالي اصبح لكل واحدة منها شكلها الخاص بها.

أهم سمات المدن القديمة هي أسوارها التي حددت الإطار الجغرافي لها، وحصرت جميع أبنيتها في الداخل رغبة في الحماية من الأعداء المغيرين، وكما ذكرت، يتدخل الشكل العام لتضاريس الأرض التي تنشأ عليها المدينة في تحديد الخط العام للأسوار بشكل حاسم، إضافة لحسابات النمو السكاني المستقبلي للمدن الذي كان يؤخذ بعين الاعتبار لدى إقامة المدن، وتكون الأسوار مبنية من الحجر، وتتميز بمتانتها وارتفاعها بحيث تؤمن حماية ولو مفترضة للسكان في الداخل، وتتفاوت سماكة الجدران وفق حاجات الدفاع، كما تتقارب الأبراج المنوط بها مهام المراقبة والدفاع في نقاط الضعف، أي النقاط المعرضة للهجوم أكثر من غيرها، وهنا يلعب التاريخ الخاص لكل مدينة دوره على حدة، فدمشق حددت الأسوار الجنوبية كواحدة من أكثر أماكن الخطر التي تعرضت لها خلال التاريخ، أما حمص فكانت الأسوار الشمالية من أكثر نقاط الخطر فيها كونها تواجه هجمات أباطرة بيزنطة المقيمين في أقصى الشمال، ثم انضمت إليها الأسوار الغربية حين ظهر الخطر الصليبي على مسرح الأحداث.. ودعمت بالأبراج القوية على كل مسارها، وزودت الأبواب المحصنة بأبراج ضخمة تختلف في مرافقها عن بقية الأبراج الدفاعية كونها مركز دائم للحامية الجمركية التي تتولى مهمة تحصيل المكوس - الضرائب - إضافة إلى الحامية العسكرية التي تتولى مهمة الدفاع حين يظهر الخطر الخارجي (صورة رقم 2).

ومهما قدم التاريخ من أمثلة على اختراق الأسوار، وعدم كفاءة الأبراج والأبواب الدفاعية، لكنها وبشكل عام كانت توفر حماية نسبية، ومعنوية أيضاً، إضافة إلى بعض الأمان الذاتي الذي وان انكفأ متراجعا أمام الهجمات الجماعية للأعراب، التي كانت تنجح في اختراق بعض نقاط الضعف التي تكون قد خبرتها

خلال غزواتها المتكررة، كذلك أمام الهجمات الساحقة لجيوش الأعداء المغيرين، الا أن وجود هذه التحصينات كان ضروريا لمتابعة الحياة اليومية للسكان، مشفوعة ببعض الاحساس بالأمان، كما كانت تحد من حالة الفلتان التي يمكن لها أن تعم في حالة عدم وجودها.

ترتبط المدن فيما بينها بطرقات رئيسة تسلكها عربات تجرها الخيول، وتسير عليها قوافل التجار المحملة بالبضائع، وعلى مسافات متفاوتة على الطرقات الواصلة بين المدن تنتشر الخانات، لتقديم الخدمات للمسافرين، من غرف للمنامة، مستودعات لحفظ البضائع، وإسطبلات لتبديل الخيول التي أرهقها السفر الطويل، وفرن لتقديم الخبز الطازج، كما وتزود أيضاً بمكان لإقامة الصلاة، يستبدل أحياناً بجامع صغير ومئذنة، وفق اتساع الخان وترفه، كما زودت بعض الخانات البعيدة عن المدن بحمام صغير يؤمن الراحة للمسافرين الذين أرهقهم طول السفر ومشقاته. وللخانات أهمية بالغة كونها تشكل نقاط اتصال بين المجتمعات المتباعدة وكذلك بين الشعوب المختلفة، حيث تتلاقى الثقافات وتناقش فيها العادات المتفاوتة وتعرض بعض الأفكار الدينية وآخر مستجدات السياسة في الأمصار التي قدموا منها، فيتناقل المسافرون والتجار الأخبار، ويتداولون الآراء، فينجم عن هذا تبادل ثقافي ساهم إلى حد بعيد في تقريب المسافات بين الشعوب المختلفة، والطوائف التي فرقتها أهداف الساسة ومطامعهم، في حقبة من الزمن كانت فيه سبل الاتصال بين المدن والشعوب عسيرة جداً وتتطلب جهدا لا يقدر عليه الجميع. هذه الطرقات كانت تصل مباشرة للأبواب الرئيسة للمدن. ثم تخترق البوابات باتجاه المركز، أو ما يطلق عليه الوسط التجاري.

على تخوم المدن توزعت البساتين المثمرة والأراضي الزراعية، تقدم لها حاجاتها من الخضار والفواكه، وقليل من الحبوب، أما كفايتها من الحبوب، كالحنطة، الشعير العدس، الحمص، والفول، فتكفّل الريف المجاور، أو البعيد قليلا، بتأمينها.

وتشترك هذه المدن فيما بينها بأحد أهم سماتها وهو الجامع الكبير، يتوسط المدينة، ويصبح كالمحور الذي تدور حولة كافة الفعاليات، الاقتصادية والاجتماعية، والروحية في المدينة على السواء، وأيضاً بوجود الوسط التجاري المتمثل بالأسواق، التي يتركز انتشارها الكثيف حول محيط الجامع الكبير.

إلى جانب هذا تشكل القلاع سمة أخرى مشتركة بين المدن، فهي بناء حصين يضم مقر الحاكم، والحاشية التي تتولى مهمة الدفاع عنه أولا ثم عن المدينة ثانيا وهي البناء الأكثر أمنا والملاذ الأخير الذي يلجأ له السكان في حال سقطت مدينتهم بيد الأعداء، وقد حفظ التاريخ أمثلة كهذه بين صفحاته. وارتبط مكان بناء القلعة كعنصر مهم في النسيج العمراني لهذه المدن، بعامل نشوء كل مدينة وطبيعتها التضارسية، فقلعة دمشق بنيت على منبسط من الأرض في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة، بينما تتوسط قلعة حلب المدينة وكذلك قلعة حماه. اما قلعة حمص فتقع على الزاوية الجنوبية الغربية للمدينة، وتخرج بمعظم كتلتها المبنية فوق تلة مرتفعة عن مسار الأسوار، أي وببساطة لا يوجد هنا نظام ثابت لاختيار مكان بناء القلعة، فقد خضع خلال التاريخ لعوامل دفاعية محضة. وإن كنا لا نستطع إقصاء رغبة الساسة في اختيار المكان، كون القلعة كما ذكرت تضم مقر الحكم، وسكن الحاكم الذي كانت له الكلمة الفصل والنهائية في تحديد مكان إنشائها.

هذه لمحة عن مدن الشام بشكل عام، أما مدينة حمص، فدراسة مخططها يقدم لنا مدينة لها شكل شبه منحرف (الشكل رقم 1)، غير منتظم الأضلع، تشغل القلعة التي بنيت فوق تل يرتفع عن مستوى المدينة ثلاثين مترا الزاوية الجنوبية الغربية منه، وتبرز عن جسم السور بكامل كتلتها، وعلى الضلع الشمالي للسور نجد الجامع الكبير في نقطة تقابل القلعة تقريبا، وتنتشر الأسواق التجارية حول المسجد الجامع من جهات ثلاث، الشرقية، الجنوبية، الغربية، أما الشمالية فليست سوى سور المدينة، الذي استخدم كجدار رابع للجامع، خلافا لما هو متعارف عليه في جميع المدن القديمة في عالمنا العربي، حيث يبنى، تقريبا، الجامع الكبير في قلب المدينة مبتعدا عن الأطراف، بل نجده أحياناً في نقطة أقرب إلى وسط المدينة – حلب مثلاً.

بمحاذاة الأسواق، تبدأ المناطق السكنية بالظهور، والامتداد وقد توزعت إلى حارات وأحياء، تتخللها الدروب والأزقة وتتوزع بين بيوتها السكنية المساجد والكنائس، الحمامات، المقاهي، الأضرحة، الزوايا، وسبل الماء. وهي العناصر الرئيسة التي يتشكل منها النسيج المعماري للمدينة، وكذلك المنشآت الصناعية

ومعظمها - في حمص - مشاغل للنسيج القطني والحريري وبعض معاصر الـدبس وأماكن لصناعة النحاس ومحال لصنع بعض الأدوات الحديدية المخصصة للأغراض الزراعية اليدوية، وورش النجارة اللازمة لأعمال البناء ولصناعة بعض قطع الأثاث المنـزلي البسيط، وإكساء المنازل الغير مترفة واللازمة من نوافذ وأبواب وخـزائن جدارية...

لقد كانت عمارة حمص مدنية بامتياز، فقد خلت المدينة من المنشآت الحيوية الهامة والمترفة في زخرفتها وزينتها أيضاً، التي شرعت واجهـات عمائرهـا علـى الطرقات العامة وزهت بها المدن الأخرى، فمساجد حمص صغيرة وبواباتها بسـيطة وخالية من الزخرفة المترفة، والمدارس عبارة عن كتاتيب لا تتعدى الغرفة أو غرفتين ولا وجود لمستشفى بها، حتى دار الحكومة الرسمي كان بناء بسـيطا مـن طـابق واحد، لقد كان نسيجها المعماري بيوتا سكنية جهد أصحابها بتزيينها والعناية بها، جعلت من حمص مدينة فريدة عمّرها سكانها كل بما لديه.

أما الترب، والمدافن فتقع خارج الأسوار أي خارج نطاق المدينة. وتمتد على مساحات واسعة من الأرض، إلى الغرب والشمال والشرق. هذا وقد تميزت مـن الترب في حمص التربة الشرقية، وتسمى الكتيب، هذه التربة حظيت على قداسـة خاصة لدى المسلمين في المدينة كونها ضمت عددا من القبور التي دفن بها بعض من صحابة الرسول محمد (ص) ممن سكنوا المدينة بعد الفتح العربـي لها.

أما بساتينها فقد انتشرت إلى حد ما غير بعيدة عن تخوم الأسـوار، فعلـى مسافة ثمانمائة متر تقريبا يجري نهر العاصي في سهل خصيب انتشرت على ضـفافه بساتين زرعت بالأشجار المثمرة كالمشمش والجوز والتين وبعض الخضار، وشجر الحور لفصل الحقول الزراعية بعضها عن بعض، واللازمة أخشابه لأعمال البنـاء، وتمتد الحقول باتجاه الأسوار في الجُهتين الغربية والشـمالية مـن المدينـة دون أن تلاصقها. ولتأمين المياه إلى المناطق البعيدة نسبيا عن النهر شقت بعـض السـواقي الضرورية من المجرى الرئيس لنهر العاصي. أما الساقية المجاهدية وهي الأهم - نسبة للملك المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني الذي حكم حمص خلفاً لوالده بين عـامي 1185-1239م - أقام هذا الرجل خلال سني حكمه عدداً من المشاريع الخدميـة للمدينة كان أهمها شق الساقية التي حملت اسمه، وقد أنشأ عليها نـاعورة مـاء في

منطقة قريبة جداً من السور الشمالي، تتولى توزيع المياه على الحقول الزراعية، وكذلك إيصالها إلى الجامع الكبير القريب منها عبر قناة حُملت على عقود حجرية لإيصال المياه النظيفة لأكبر مساجد المدينة، ولزيادة مساحة الأراضي الزراعية. وأعتبر هذا المشروع، في زمنه، أهم المشاريع الاقتصادية التي عرفتها المدينة وأضخمها، فمياه الساقية استقدمت من بحيرة قطينه على بعد (6كم). وإلى جوار ناعورة المياه أنشأت الحكومة العثمانية فيما بعد بناء التكية السليمانية وخصصتها لإيواء الدراويش من الناس، وكلا المنشأتين كانتا الوحيدتين المقامتين خارج أسوار المدينة، لكن بلدية المدينة ما لبثت أن أزالت هذه المنشأة الحيوية في عام 1925م و لم تولها حقها من التقدير (صورة رقم 3).

على الطرف الجنوبي للسور انتشرت بساتين الكرمة والعنب وأشجار الزيتون في أرض تقل خصوبتها عن بساتين نهر العاصي المخصصة للخضروات والفاكهة، وللعنب أهمية خاصة كمادة غذائية مرغوبة ومحببة من السكان، إضافة إلى أهميته لصناعة الدبس التي كانت رائجة في المدينة آن ذاك بل ومطلوبة من المدن البعيدة، فإلى جانب المعاصر التي أقيمت لإنتاجه، بني خان صغير في قلب المدينة خصص لاستقبال التجار الراغبين بشراء هذه المادة، وللعنب أهمية أيضاً لإنتاج النبيذ والعرق التي تركزت في الريف المسيحي المجاور فقط، كقريتي زيدل وفيروزة، نظرا للحساسية التي قابل بها الدين الإسلامي تناول المشروبات الروحية، رغم أنه لم يستطع منعها بين رعاياه من المسلمين أنفسهم، وتقدّم أشجار الزيتون بعض من حاجة المدينة من مادة الزيت، أما كفايتها منه فيحضر من الشمال السوري، ولقد عثر خلال أحد أعمال التنقيب الحديثة على قطع حجرية كبيرة تعود لإحدى المعاصر في تلك المنطقة.

تجاور الصحراء مدينة حمص بمسافة ليست بعيدة عن ضلع السور الشرقي، حيث يرتع بعض البدو الأعراب – اما العشائر الكبيرة من البدو فسكنت عمق الصحراء بعيدا إلى حد ما عن المدينة حيث سيطرت على منافذ البادية ودروبها وعمل بعض فرسانها كأدلاء وحماة للتجار والمسافرين على اختلاف مشاربهم لدى قيامهم بعبور تلك الطرقات – وقد دأب الأعراب المجاورين للمدن الإغارة بين الفينة والأخرى على المدينة ليسلبوا الناس مؤنهم وأرزاقهم التي خزنوها لفصل

الشتاء، وبالنتيجة كانوا يصطدمون مع من يعترضهم من الفتوة الذين أوكلت لهم مهمة التصدي للعابثين من الناس، فيقتلون من يتصدى لهم أو يقتلون هم أثناء الاشتباك، وقد دأبت السلطة المتمثلة بالمتسلم - حاكم المدينة آن ذاك - على قتل من تقبض عليه من هؤلاء اللصوص ثم تعلق جثته على أحد أبواب المدينة ليكون عبرة لغيره. مع العلم أن هذا العقاب الصارم والبالغ في قسوته، لم يكن كافيا لدرء تلك الهجمات المؤذية.

لقد لعبت الطبيعة القاسية والأحوال الجوية السيئة دورا كبيرا في تعزيز تلك الهجمات أو في التقليل منها، لا منعها، وفقا لتعاقب سنين القحط والجفاف والحاجة الماسة للغذاء الذي كان يندر في الصحراء أثناء مواسم الجفاف التي كانت تحيق بالمنطقة من وقت لآخر، فيصبح أحد سبل الحصول على الغذاء اللازم لاستمرارية الحياة، إثر نفوق معظم قطعان الماشية التي يعتمد البدو عليها في تأمين الغذاء، وندرة الحبوب، فيتم الغزو وسلب مؤن المدن المجاورة لمناطق سكنهم، اما في المواسم الخيرة حين تجود السماء بالمطر، ويتوفر الغذاء في الصحاري، فكانت حدّة وقسوة الغارات تخف إلى حد ما، وتقتصر على بعض الرعاع الذين تستهويهم اعمال السلب ويتخذونها مورد رزق ينفقونه على شؤونهم الخاصة، وهنا مكمن الذنب.

هذه لمحة سريعة أو بالأحرى، هذه صورة عامة لحمص بداية القرن التاسع عشر، التي استمرت حتى منتصف القرن التاسع عشر، **الفترة التي اكتملت بها ضمن الأسوار.**

لكن المدينة لم تلبث أن بدأت تتململ ضمن الجدار المؤطر لحدودها، كنتيجة طبيعية لزيادة عدد السكان وارتفاع سعر الأراضي المخصصة للبناء، إضافة إلى المتغيرات الحضرية التي بدأت تلوح في افق بلاد الشام كافة، وإن كانت العوامل الرئيسة لخروجها عن نطاق الأسوار جاءتها من الخارج:

1- تمكن إبراهيم باشا قائد قوات محمد علي حاكم مصر وابنه أيضاً من الدخول إلى المدينة عنوة عام 1832م، ونتيجة لهذا لجأ إلى تهديم جزء من قلعة المدينة ونزع الحجارة التي تحيط بموقع القلعة وبنى مستودعات لأسلحة جنده ومؤونته خارج السور.

2- حدوث تغير جذري في بنية نظام الإمبراطورية العثمانية المتهالكة أدى لعدد من التدخلات الأجنبية نتج عنها الغاء الدولة للضريبة المفروضة على التجارة الداخلة إلى المدن عام 1870م فقلّ شأن الحاميات الجمركية التي كانت تتمركز على أبواب المدن، ثم سحبت هذه الحاميات بالكامل، فلم تعد الأسوار تلقى العناية القديمة، من ترميم وتدعيم لازمين لعدم تداعيها، ثم انهيارها.

3- تراجع صناعة الحرير في دمشق وحلب اللتان لم تصمدا كثيرا أما مستوردات الحرير الصناعي الرخيصة الثمن، فاستفادت حمص وزادت عدد مشاغلها للحرير الطبيعي، فقدم إليها الكثير من عمال هذه الصناعة مع عائلاتهم وكانوا بأمس الحاجة إلى بيوت للإقامة فيها، فارتفعت أسعار الأراضي المخصصة للبناء داخل الأسوار وأصبحت الحاجة ماسة لإقامة مناطق سكنية جديدة ورخيصة تناسب هؤلاء القادمين الجدد.

4- زيادة الدخل العام الذي رافق ازدهار صناعة الحرير، وتضاعف ثروات برجوازية المدينة، أدى إلى ازدهار أعمال البناء، وظهور قصور كبيرة وعمائر جديدة، اكتسحت ما حولها من البيوت البسيطة، فأصبح أصحاب هذه البيوت بحاجة لإقامة منازل جديدة.

لقد سجل سليمان صافي - احد أبناء المدينة وكان يعمل خياطا - أول مغامرة في هذا المجال، وبنى لنفسه بيتا خارج سور المدينة سنة 1887م، وكانت خطوة جريئة في زمانها، رغم أن الرجل انتظر سبعة عشر عاما بعد إهمال العناية بالأسوار وتداعي أجزاء منها حتى سجل سابقته تلك، فشكلت هذه الخطوة حافزا للسكان للخروج عن نطاق المدينة المسورة، فبدأوا بتردد وخجل أولا، ثم وبكثير من الجرأة بتشييد دور سكنهم التي انتشرت هنا وهناك أولا، و لم تلبث ان انتظمت بشيء من العفوية في كل من الحميدية وجورة الشياح، ثم وبكثير من الجرأة والتصميم في كافة الاتجاهات مكتسحين البساتين والأراض الزراعية من جهة، ومتحدّين الصحراء الجافة المجاورة لهم من جهة ثانية حتى آلت المدينة إلى ما هي عليه الآن.

إذا أردنا العودة بالزمن للوراء وتصور كيف كانت حمص تبدو للقادم من دمشق بعد عناء السفر عبر صحراء جافة تفصل المدينتين عن بعضهما، فيمكننا أن

نتصور في الأفق خط رقيق لبساتين الكرمة والزيتون، وقد تلون بلون اخضر قاتم، ثم يتراءى بناء القلعة واسوار البازلت للمدينة، بعد ذلك يظهر نهر العاصي كخيط ازرق صاف يتلألأ متعرجا ضمن بساتين الخضرة وأشجار الفاكهة المحلية التي تختلف الوانها مع تبدل فصول السنة. وحين يقترب المرء اكثر ويواجه اسوار المدينة تبهره دقة عمارتها واتقان صنعة أبوابها الضخمة. ذلك ما كانت عليه المدينة في القرن التاسع عشر.

الفصل الثاني



منظر الباب المسدود من داخل المدينة القديمة (إنترنت)
(على الأرجح الصورة لباب هود الدارس)

الأسوار والأسواق

الأسوار

لم يبق من أسوار حمص سوى أجزاء صغيرة، بعضها غائب ضمن البيوت السكنية التي نمت على حسابه وبعضها متوزع هنا وهناك، فالمساحة الأكبر والأهم منها أزيل من قبل السكان الذين استخدموا حجارتها في بناء مساكنهم، إذ وجدوا فيها مادة بناء متوفرة جاهزة ورخيصة، بعد أن فقدت الأسوار دورها الوظيفي، وأهميتها الدفاعية، إثر إهمال الدولة لها، بل وقيام الحاكم المصري إبراهيم باشا باستخدام جزء من حجارة الأسوار في بناء المستودعات العسكرية التي أنشأها إثر دخوله المدينة عام 1832م (صورة رقم 1).

ما بقي منها، وما زودتنا به كتب التاريخ، خاصة الرحالة منهم، وما كشفته الحفريات الأثرية، وفر لنا مادة يمكن الاعتماد عليها إلى حد ما. لتقديم شيء من التصور عنها.

يشير مخطط حمص الذي أُعد من قبل سلطات الانتداب الفرنسي – وهو الوثيقة الأهم المعتمدة لدراسة كهذه – إلى أن أسوار مدينة حمص كان لها شكل شبه منحرف يتقعر على شكل زاوية منفرجة وسط الضلع الشمالي منه، وقد بنيت من حجارة بازلتية، صغيرة الحجم، مشذبه لكنها غير مصقولة، تتراوح سماكتها في منطقة حي الأربعين بين (60 و70 سم)، وهي من أفضل الأجزاء التي ظلت محفوظة حتى وقت قريب لوجودها في مركز المدينة الحديث، وزودت بنظام دفاعي من الأبراج الدائرية. هدم أكثرها مع ما هدم من السور، وبقي البعض الآخر حيث استخدم كغرف ملحقة بالدور السكنية التي بنيت ملاصقة للأسوار، وما تبقى هدمت أجزاء منه بفعل عوامل الزمن. وهكذا فلا يمكن لنا التأكد من عددها، أو من المسافة الفاصلة بين كل برج وما يليه كونها تختلف من ضلع لآخر، وكذلك على الضلع نفسه، وفق الحاجات الدفاعية المطلوبة، والمقدرة من قبل العسكر.

في منطقة حي الأربعين يظهر جزء من الضلع الشمالي للأسوار ونلاحظ وجود برجين أحدهما كامل والثاني بقي منه مدماكين من الحجارة ذات القطع الكبير بعضها بازلتية سوداء، والبعض الآخر كلسي شيدت دون مراعاة لتنسيق الألوان فيما بينها، ويشير أسلوب عمارتها إلى طراز العمارة الأيوبية، فالأجزاء السفلى من هاذين البرجين مع عدد من الحجارة المرصوفة الأخرى تشير إلى مسار آخر للسور المعروف تعود إلى حقبه من التاريخ أقدم مما أتحدث عنه الآن، وهنا أستطرد قائلة أن سور المدينة رمم أكثر من مرة عبر التاريخ، سواء بفعل تهدم بعض أجزائه كنتيجة حتمية لإغارة الأعداء عليها، أو إثر تهدم المدينة شبه الكامل، وفي أفضل الحالات تخلخل أبنيتها التي تمكنت من المقاومة، بعد تعرضها لسلسلة من الزلازل القوية والمدمرة كان أعنفها عام (1157م) و(1169م). خلال القرن السادس الهجري، الثاني عشرة للميلاد.

تبلغ المسافة بين البرجين المذكورين (40م)، ولكن بقية السور الممتدة شرقا في هذه المنطقة المسماة محليا "حي الأربعين" زالت تماماً ومن المعروف – ووفق

الخرائط – أن الامتداد يستمر باتجاه الشرق حتى منطقة باب تدمر وهناك يختفي بين المنازل برجان آخران لم أستطع توثيقهما ضمن هذه الظروف.

تشكل منطقة باب هود نقطة النهاية لجدار السور الشمالي، ويبدأ الخط الغربي المتجه جنوبا في هذه المنطقة، ويشكل الجداران زاوية شبه قائمة في نقطة التقائهما، ثم يمتد الضلع الغربي من السور من حي باب هود ولغاية حي التركمان حيث تتمركز القلعة فوق التل الأثري، وقد احتفظ بالعديد من أبراجه، أولهم لايزال ظاهرا للعيان يبتعد عن زاوية التقاء الضلعين الشمالي والغربي (25 مترا) ثم ينقطع استمرار السور ليظهر ضمن المنازل السكنية، وهناك نحصي برجين استخدما كغرف سكنية ضمن البيوت، وتقدر المسافة الفاصلة بينهما (30 مترا)، وجميع الأبراج دائرية المسقط. على هذا الضلع تشير المصادر التاريخية إلى وجود ثلاثة أبواب هي باب هود، الباب المسدود، وباب التركمان لم يبق منها سوى الباب المسدود، وقد زوّد ببرجين كبيرين مربعي الشكل، و لم يتطرق الوصف الذي وردنا من قبل الرحالة لوصف الأبراج وهل هي مربعة أم دائرية، الا أني أرجح فكرة أن تكون الأبراج الملحقة ببوابات المدينة من حيث الشكل تشبه أبراج الباب المسدود المربعة كونها أكثر اتساعا وأكثر ملاءمة للإقامة الدائمة، وأعني الحامية الجمركية التي تطلبت مهامها ذلك، بينما كانت الأبراج الأخرى تستخدم للمراقبة فقط في حالات السلم، وتعود إلى وظيفتها الأساسي في الذود عن المدينة زمن الحرب ثم يظهر برج آخر ضمن حديقة أحد المنازل الفقيرة وقد كان ظاهرا للمارة في الطريق المجاور ثم اختفى عن الأنظار مؤخرا بعد بناء غرف محيطة به في السنوات الثلاث الماضية.

لا يمكنني الجزم بارتفاع الأسوار إلا من خلال البرج الذي استخدم كمئذنة لجامع حي الأربعين فبقي محافظا على بنائه، هذا البرج يرتفع (11م) وكذلك برجي الباب المسدود المحافظين على شكلهما ويرتفعان (10 م) (صورة رقم 3).

هذا ما يتعلق بمسار أسوار المدينة والأجزاء المحفوظة منها. ونظامه الدفاعي. أما سماكته فلا يمكن الجزم النهائي بها، فهي تختلف من مكان لآخر.

ذكرت سابقاً أن سماكة الجدران المحفوظة على الضلع الشمالي والغربي منه بلغت بين (60 و70سم)، الا أن التحري الأثري توصل لاكتشاف قسم من

الأسوار على عمق (4 م)، بسماكة (260سم) في العقار الواقع على الضلع الشرقي للجامع النوري الكبير الذي يستند بجداره الشمالي على سور المدينة. وتشير الكسر الفخارية التي يستند عليها في عمليات التأريخ الأثري، والتي عثر عليها في الموقع المذكور تعود للعصر المملوكي، ما يعطي دلالة على أن السور المكتشف في الموقع هو السور الذي دعم في هذه الفترة من التاريخ. وتساعدنا العودة إلى التاريخ في تدعيم هذه الفرضية. لقد استدعت الضرورات الدفاعية إبان الغزو الأوربي للمنطقة نظاما دفاعيا قويا، يتطلب إنشاء نظام دفاعي قوي يحمي المدن من الغزو الخارجي، بينما تمثلت الاضطرابات في فترة الاحتلال العثماني بالفتن الداخلية، إضافة إلى أن سياسة هذه الدولة التي اهتمت بجباية المكوس الضريبية واعمار عاصمتها الآستانة على حساب كافة أمصار الإمبراطورية، وتردي الوضع الاقتصادي لها كنتيجة لهذه السياسة، فلم تعد خزينتها تتحمل انفاقا باهظا يحتاج إليه التدعيم الدائم لأسوار مدنها، لذلك لجأت إلى تقليل سماكة أسوار المدن ومنها حمص، الذي يمكن أن يؤخذ بالاعتبار، وهكذا أرجّح أن يكون السور الذي وصل الينا هو السور العثماني - خلافا للاعتقاد بأنه مملوكيا، والسور المكتشف غرب الجامع هو السور المملوكي.

زودت الأسوار بسبعة أبواب، ست منها فاعلة، والسابع أغلق منذ عام 1516م، وسمي "المسدود"، إثر خروج السلطان سليم الأول العثماني منه بعد زيارته للمدينة، فقد جرت العادة في عهد السلاطين العثمانيين أن يغلق نهائيا باب المدينة الذي يخرج منه السلطان احتراما لمقامه، واستبدل بباب القلعة، الذي عرف فيما بعد بباب التركمان نظرا لتمركز جماعة من التركمان المهاجرين من تركيا بالقرب منه خارج السور، وبنوا لأنفسهم أكواخا صغيرة وفقيرة تأويهم، فالمدينة لم تسمح لهؤلاء القادمين الفقراء بدخول أرضها. أما الأبواب الستة الباقية فهي، باب السوق - يعرف أيضاً بالباب الصغير نسبة لحجمه الصغير نسبيا - على الضلع الشمالي، باب هود وباب التركمان إضافة إلى الباب المسدود على الضلع الغربي، باب السباع على الضلع الجنوبي، باب الدريب وباب تدمر على الضلع الشرقي، وجميعها زودت بأبراج على الجانبين، ولا يمكن لنا معرفة الهندسة المعمارية لهذه الأبواب وتقديم وصف ولو مبسط عنها لتهدمها بالكامل، وكل ما

لدينا عنها بعض الجمل البسيطة للرحالة الذين زاروا المدينة وذكروا وصفا مختصرا لما شاهدوه.

فكتب الرحالة ابن جبير واصفا وبكثير من الأعجاب أسوار وأبواب المدينة، وكان قد زارها نهاية القرن السادس الهجري، الثالث عشر ميلادي، فقال "وأسوار هذه المدينة في غاية المتانة والوثاقة مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود وأبوابها حديدية سامية الإشراق هائلة المنظر رائعة الاطلال والأناقة تكتنفها الأبراج المشيدة الحصينة".

وآخر هؤلاء كان الرحالة الألماني ادوارد زاخاو في عام 1879م. حيث قال "وصلنا حمص في 24 تشرين الأول الساعة 5.20 صباحا عن طريق بابا عمرو، وقد قطعنا المسافة بين القرية المذكورة وحمص بحوالي 25 دقيقة. شاهدنا أبراج المنطقة المحاذية للطرف الشمالي من بحيرة قطينة، وكلما اقترب الناظر من أسوار المدينة شاهدنا بقايا قلعة حمص، وما تدفنه من بقايا بعض الأبراج على سطحها، وتوجد في جسم السور الشمالي بوابة ضخمة". ثم يذكر في جزء آخر من الوصف قائلا "ما زالت أجزاء من السور باقية"، ففي عام 1879 لم يكن السور كله قائما وهي الفترة التي تلت الغاء السلطة العثمانية للضريبة المفروضة على البضائع التجارية، ورغم هذا استمر السكان في إقامتهم ضمن الأسوار ولم يخرجوا عن نطاقها حتى عام 1887م، حين بدأوا بعمارة بعض البيوت خارجها.

الأسواق

تعتبر الأسواق - في كل المدن - الخلية التي تسيطر عليها لغة المال، وتنبض بها العلاقات التجارية، ويسيطر جو المبادلات والصفقات الرابحة أحياناً والخاسرة أحياناً اخرى، وتشيع في أجوائها المنافسة بغرض الترويج والكسب، ومهما كانت الأوضاع الاقتصادية لمدينة ما سيئة، يبقى هناك زبائن محليون أو أغراب يؤمونها للتبضع، وتجار من مختلف الأصقاع يرودونها لشراء بعض من المنتجات الخاصة بها، وكنتيجة طبيعية لهذا يفترض بها تقديم كافة الخدمات التي يحتاجها القادمون، سواء منهم المقيمين من أهل المدينة، أو القادمين من أصقاع أخرى للتبضع، أو محملين بالبضائع بقصد بيعها. وهكذا يفترض بالأسواق ألا تقتصر على الحوانيت التجارية والمسالك الموصلة لها فقط، بل وحتى تكتمل بنيتها الاقتصادية، عليها أن ترضي جميع الوافدين إليها، وتقدم لهم حاجتهم من الخدمات التي يرغبون فيها، لهذا نجد أن النسيج المعماري للأسواق يتألف من مجموعة متكاملة من المنشآت التي ترتبط فيما بين بعضها لتؤدي كافة الخدمات التي يحتاجها التجار المحليين المقيمين فيها، وكذلك التجار القادمين من مناطق بعيدة، والزبائن بكافة فئاتهم، المحليين منهم والأغراب، سواء كان قدومهم من الريف المجاور، أو من المناطق والبلاد البعيدة. فلكل من هؤلاء خدمات خاصة يحتاجها فترة تواجده في المدينة. لهذا وفي كل الأسواق نجد إلى جانب حوانيت البيع، المقاهي، الحمامات العامة، والخانات المعدة لإيواء التجار المسافرين وتزود هذه عادة إلى جانب غرف المنامة بالمستودعات المطوبة. أما في مدن العالم الإسلامي فقد تعدى وجود الأسواق الدور الاقتصادي، ليشمل الحياة الروحية والاجتماعية المتمثلة بالتركيز على القيم التي أرسى قواعدها الإسلام ودعمها، ويبتعد دورها أكثر ليصل إلى صميم الحياة الخاصة للإنسان، بغية تثبيت مبادئ ومفاهيم الدين الإسلامي، الذي شاءت له ظروفه أن يصبح دولة مترامية الأطراف لها ثقلها السياسي والحضاري في العالم.

فمن السمات العامة للمدن في العالم الإسلامي، إحاطة الأسواق بالمسجد الجامع، أكبر مساجد المدينة، وأكثرها أهمية من حيث الدور الديني الكبير الذي يمثله، كونه مقر الفتوى، التي هي الضابط الرئيس لسلوك الجماعات المسلمة، والمنظم لعلاقاتها مع بعضها البعض، هذه الشريحة التي نمت لتصبح الأكثر عددا، وأصبح لها تأثيرها ونفوذها في المجتمع، لدرجة أنها صبغت الفئات السكانية التي تدين بديانة أخرى كالمسيحية بصبغتها من حيث الشكل. ونظرا لكون الفتوى هي الناظم الرئيس للسلوك، فقد أخذ المسجد الجامع دوره في ضبط علاقات التجار مع بعضهم البعض، ووقف مراقبا شديد البأس لا يتهاون في قمع أية محاولة للشذوذ عن تعاليم الدين الذي يمثله، الذي حرّم الفائدة على الدّين تحريماً كاملاً، حيث تجد هذه العادة لها في العلاقات التجارية أرضا خصبة يمكن أن تسود فيها. وما عزز إلى حد كبير وجود الجامع الكبير في قلب الأسواق، كونه المراقب والشاهد الذي لا يدحض رأيه، والقامع الذي لا يتراجع لحظة تصديه لمسألة كهذه. وشيوخه يجوبون الأسواق في رواحهم ومجيئهم، يعقدون الصداقات مع التجار ويتصيدون الأخبار، يتناقشون فيما بينهم ويصدرون تعاليمهم، ينشرونها باللين حينا، وبالتخويف أحيانا، فان لم تفلح تصدوا للموقف بكل القوة التي يملكونها، مستخدمين سطوتهم وتأثيرهم الذي لا يخيب على الرأي العام، في مدن شاع فيها جو الرهبة من العقاب يوم القيامة، والرغبة في تحصيل الأجر والثواب في الآخرة.

إضافة إلى هذا فالتجار والحرفيون المسلمون، وهم السواد الأعظم في مجتمع المدينة المتمركزين في الأسواق، منوط بهم تأدية الصلاة خمس مرات في اليوم، لذا فعليهم تأدية فرضهم في الجامع، وهم بهذا على تماس دائم مع رجال الدين، يشركونهم باستشارتهم في الأمور الخاصة، والعامة، بما فيها الزواج، والطلاق، وإعادة الزوجة المذعورة إلى بيتها، ووجود المسجد الجامع إلى جانب سلطة رجال الدين على المجتمع، هيأ الأرضية المناسبة لهذه الأجواء، وشكل رادعا لمن تسول له نفسه الشذوذ. وإن كان الأمر لم يخلو من تهاون بعض الشيوخ في حل بعض المسائل العالقة، ما يؤدي إلى شيء من التسيب، وهنا يبرز دور الجامع الكبير ممثلا بكبار شيوخه، ويكون حاضرا لإعادة الأمور إلى نصابها.

أما فيما يتعلق بالفائدة على الدّين - الربا - فقد شكل حاجزا لا يمكن القفز فوقه، كونها رزيلة سلوكية نها عنها الدين.

هذا من جهة، أما من الناحية الأخرى فقد سهل تأدية الصلاة على المؤمنين من الإسلام، فوجوده القريب، كان يعني عدم التغيب لفترة طويلة عن مقار عملهم. مما لا يؤثر على سير الحركة التجارية، ولا يعيق الربح فيها.

ما لبثت مع تقدم الزمن أن برزت مظاهر النمو السكاني في المدينة، فظهرت الحاجة الماسة لوجود مساجد أخرى تخفف العبء عن الجامع الكبير، وتقوم ببعض الدور الذي يقوم به وليس كله، فشرعت أعمال البناء تقيم مساجد أخرى في منطقة الأسواق في فترات لاحقة تطوع بالإنفاق عليها بعض المقتدرين من السكان. فأقيم إلى جانب الجامع النوري الكبير كل من جامع القاسمي عام 1122 هجرية، ثم جامع البازرباشي عام 1152 للهجرة.

إلى جانب المساجد كأبنية تدخل في نسيج عمارة الأسواق. برزت أبنية الخانات، ورغم أن مخطط حمص لم يشر إلى وجودها كمنشآت ضخمة ولها ثقلها الاقتصادي، كما هو الحال في مدينتي دمشق وحلب، وانما كمنشآت صغيرة إلى حد ما، لكنها كانت كافية لتلبي احتياجات المدينة آن ذاك، من حفظ البضائع الواردة إليها، أو البضائع المعدة للتصدير، تحفظ فيها لحين بيعها وسفرها مع التجار، ولتأمين إقامة لا بأس بها للزبائن، سواء من تجار المدن الشامية، أو التجار العرب القادمين من بلاد بعيدة، وأنوه هنا إلى أن معظمهم كان من التجار الفقراء القادمين من الخليج العربي أو شبه الجزيرة العربية - السعودية - سعيا وراء بضائع رخيصة الثمن مقارنة مع أسعار المدن الكبيرة التي احتفظت لنفسها بأسعار مرتفعة تتلاءم مع الحركة التجارية القوية التي كانت تعج بها أسواقها. وكذلك عدد لابأس به من التجار الأتراك والمصريين، الذين يأتون محملين ببضائعهم، أو لشراء ما اشتهرت به حمص آن ذاك أو اختصت بصناعته، فيقيمون فترة من الزمن في الخانات المتوفرة يلتقون في هذه الأبنية مع تجار من المدينة، ما يؤدي بالنتيجة للاحتكاك المباشر بينهم وبين التجار المحليين، فإلى جانب العلاقات التجارية، كانت تنشأ علاقات اجتماعية يتخللها نشر الثقافات الأخرى سواء المتعلقة بالشؤون الدينية أو الدنيوية كمناقشة المسائل الخلافية في الفقه، أو قرض الشعر وتداول

أخبار الشعراء وسرد الروايات، إضافة إلى نقل آخر مستجدات الحوادث السياسية ومجريات الأمور في الأصقاع الأخرى، مما يفسر الانفتاح الثقافي والحياتي، وان كان ضمن حدوده الضيقة، الذي كانت تتمتع به الطبقات البرجوازية في المدن كافة.

يعود السبب في قلة عدد الخانات المشيدة في منطقة الأسواق إلى ضعف الحركة التجارية بها، ويمكن إعادة ذلك لسببين، اولهما قلة عدد السكان، ثم الضائقة الاقتصادية التي كانت سائدة، وأهم أسباها فقدان المدينة للدور السياسي الذي لعبته أوائل الفتح الإسلامي، كنتيجة طبيعية لمواقفها اثناء الخلافة الأموية، والعباسية، وحالة التنكيل والإهمال التي تعرضت لها، كنتيجة حتمية لمجريات الأمور، وكذلك الكوارث الطبيعية التي لحقت بها، فالزلازل التي أطاحت ببنيتها المعمارية، ترافقت أحياناً مع فيضانات مدمرة، جعلت الكثير من أبنائها يغادروها إلى غير رجعة، ومن بقي، يكون قد فقد رزقه وأمواله وترتب عليه البدء من الصفر ثانية، وساعد على استمرار هذا الوضع إهمال الدولة العثمانية لها فيما بعد. ولم يسمح للمدينة بالنهوض ثانية كما يجب واسترجاع الدور الذي لعبته في القديم، فهزل اقتصادها واقتصرت قدرها الشرائية، وهي القوة المحركة لاقتصاد المدن، على القاعدة الشعبية فقط، وهي بشكل عام فقيرة، إن لم تكن معدمة، وعلى بعض الأعراب القاطنين في الجوار، إضافة طبعاً إلى الريف المجاور، أما الطبقة الغنية والمترفة فقد أنفت التبضع منها باستثناء اساسيات العيش فقط، واتجهت نحو أسواق المدن الكبرى كدمشق وحلب وبيروت لشراء حاجتها من المفروشات والألبسة وبعض أدوات الزينة من زجاج الأوبالين والكريستال والخزف، حيث وجدوا في أسواقها ما يرضي أذواقهم المتطلبة. مما زاد الوضع سوءا، وضعفت حوافز التطور الصناعي في حمص، إن لم نشأ القول انها انحدرت بشكل مريع.

أبنية الخانات

تركزت هذه الأبنية في منطقة الأسواق، وكانت تلعب دور الفنادق في العصر الحديث، يقيم فيها التجار الأغراب ويحفظون في أقبيتها بضائعهم ريثما يتسنى لهم بيعها، وفيها يلتقون مع تجار المدينة ويعقدون الصفقات، سواء كانت للتبادل ببضائع من المدينة، أو للبيع فقط، ولن ننسى عمليات الشراء لما ينتج محليا.

خان المعصرة، كان جزء من منشأة اقتصادية صغيرة قائمة في منطقة الأسواق تعمل كمعصرة لمادة الدبس، زودت بقبو لحفظ منتجاها، وغرفتين أعلى البناء لمبيت التجار الوافدين ومعظمهم ممن أتى لشراء مادة الدبس فقط.

خان الحرير، وهو الأهم بين أبنية الخان في حمص، أمر ببناء هذه المنشأة الوالي أسعد باشا العظم، 1743 – 1756م، حين كان حاكما على مدينة حماه، فزار حمص وفوجئ حين لم يجد بها خانا جيدا وهو المحب للعمارة. فأمر ببناءه كمكان يخصص لتجارة الحرير الطبيعي، وهو بناء مستطيل من طابقين في وسطه ساحة واسعة، الدور الأرضي مؤلف من محلات تجارية سقفت بعقود حجرية كانت تستخدم لتخزين البضائع المعدة للتصدير، الدور الأول سُقف بعوارض الخشب تتقدمه شرفة تطل على الساحة وخُصص كمكان إقامة للتجار وحفظ بعض البضائع الهامة أيضاً، وقد ألحق بالبناء فرن لتقديم الخبز الطازج، وللبناء بوابة كبيرة تفصله عن الأسواق.

ثم في أواخر القرن التاسع عشر بني خان الجديدة من قبل رجل من آل الكيلاني من حماه والحق به سوقا وحماما، جميعهم هدموا فيما بعد من قبل بلدية المدينة في الثلث الأول من القرن العشرين.

ويرتبط بناء الخانات في المدن عامة بعوامل أهمها:

- وجود رجل ثري أو متنفذ يستطيع بناء منشأة ضخمة كالخان، تقوم بعمل الفندق حاليا، من إيواء للمسافرين، تبديل الخيول المتعبة، حفظ البضائع في مستودعات خاصة تبقى فيها لحين إتمام بيعها، أو شحنها، وعقد الصفقات التجارية.

- أو مجموعة من المتبرعين يساهمون ببناء خان يلحق به سوق يخصص ريعه لخدمة الخان، وما تبقى يوزع على الجمعيات الخيرية التي تعنى بالفقراء من الناس، وتنفق على المرضى الغير مقتدرين.

وهذا لم يتوفر في حمص الا ضمن حدود ضيقة جداً سمحت ببناء منشآت بسيطة تولت مهمة الخان، حتى بناء خان الحرير في القرن الثامن عشر، كما أسلفت.

تلي الحمامات العامة أبنية الخانات في الأهمية، فقد كانت ملتقى السكان، ومراح المسافر بعد رحلة شاقة، يؤمها التجار القادمين للاغتسال وتصيد أخبار الأسواق، بطريقة غير مباشرة، سواء من المستحمين من أهل المدينة، أو عن طريق القائم على الحمام، أو العاملين فيه، الذين يصبحون مسربين جيدين لأخبار المدينة وأحوالها، خاصة للتجار الذين يتكرر قدومهم ويعقدون صداقات خاصة مع هؤلاء، ويتركز انتشار الحمامات في منطقة الأسواق أكثر من غيرها من مناطق وأحياء المدينة نظرا للحركة فيها، ولكثرة الوافدين من الغرباء عليها، فنجد في منطقة الأسواق بحمص أربع حمامات هامة هي، الحمام الصغير وهو أقدمها، حمام الباشا، حمام الجديد، ثم الحمام العثماني وهو أحدثها. سأقدم تفصيل واسع عنها لاحقا.

إلى جانب هذا تتوفر في الأسواق وبكثرة المقاهي العامة، وهي إحدى الخدمات الترفيهية التي تقدم المشروبات الدافئة شتاء، والمنعشة صيفا، مما يحتاجه الناس أثناء يوم العمل الطويل، اذ لم يعرف الناس فترة القيلولة، فالأسواق تفتح أبوابها باكرا، ثم تغلق في السادسة مساء صيفا، والخامسة شتاء، بينما يبدا الحرفيون عملهم بعد صلاة الفجر بقليل.

لقد أحصى الأستاذان نعيم الزهراوي ومحمود السباعي في كتابهما عشر مقاه توزعت في منطقة الأسواق معظمها اغلقت في عصرنا الحالي لعدم ملاءمتها للعصر، واستبدلت وظيفتها الأصلية بفتح محلات تجارية مكانها، فالمقاهي قديما كانت تفتقر إلى المكان الجيد والفرش المناسب.

هذا بالنسبة للأسواق من حيث كونها منشآت مختلفة ومتعددة الوظائف، لكنها ترتبط مع بعضها، ويكمل كل منها دور الآخر.

أما من حيث كونها محلات تجارية وطرقات، فقد تميزت الأسواق بعدة سمات عامة تشترك فيها مع أسواق كافة مدن الشام هي:

1- كانت الأسواق مسقوفة بمعظمها، لتقي البضائع من الأحوال الجوية، وتؤمن الراحة للعابرين فيها، وتمكّن الزبائن من قضاء فترة طويلة يتجولون في أرجائها، دون أن تعوقهم الظروف الطبيعية بكافة تقلباتها عن ذلك في مدن عرفت بصيفها القائظ، وشتائها البارد والمطير، وقد سقفت أسواق حمص بثلاث طرق، التسقيف بألواح التوتياء العازلة، وتركب على قالب من الخشب السنمي الشكل - "جملون" باللغة المحلية. أو قُبِّبت بعقود متصالبة، أو بعقود طويلة، تفتح في أسقفها كوى للإنارة والتهوية وتسلح بالقضبان الحديدية لسد الطريق على من تسول له نفسه التسلل خلسة في الليل إليها (صورة رقم 1 و2).

2- قسمت وفق البضائع التي تباع فيها، كسوق الحرير، المنسوجات، الصاغة، الفرو، الزرابلية وغيرها، إضافة إلى سوق الحسبة التي يقيم فيها المحتسب، وهو الرجل الذي توكل اليه مهمة مراقبة الأسعار ومنع التلاعب بها، إضافة إلى تحديد الأسعار في سنوات القحط منعا لارتفاعها بحيث لا يطيقها السكان، وان كان دوره في حمص محدودا جدا، نظرا للسلطات القوية التي تمتع بها متسلم المدينة.

3- رصفت طرقاتها بالحجارة المصقولة والنظيفة، للمحافظة على الشكل الجميل للسوق، وضمان نظافته، وعدم تلوث البضائع فيه.

أما السمات الخاصة فأهمها:

1- المساحة التي تشغلها هذه الأسواق على خارطة المدينة، كانت صغيرة جدا، مقارنة مع المساحة التي شغلتها الأسواق في المدن الأخرى.

2- المحال التجارية فيها صغيرة، ما يعطي فكرة عن كمية البضائع المتوفرة والمعروضة للتداول.

3- صغر مساحة سوق الصاغة فيها وضيق المحلات التي يشغلها وقلة عددها، ولهذا السوق أهمية خاصة.

لقد كانت التجارة في حركتيها، الكبرى وأعني بها التجارة الخارجية، والصغرى الداخلية، محدودة إلى حد ما فيما لو تمت مقارنتها مع المدن الأخرى،

واقتصرت على تسويق بعض المنتجات المحلية ذات الصبغة الاستهلاكية البسيطة، والمستندة على الضروريات، ولم تشكل حمص سوقا رائجة لتصريف المنتجات الكمالية، اذ وجدت هذه لنفسها أسواقا أخرى في مدن أكثر ازدهارا. فالقوة الشرائية لتجارة المفرق في المدينة ضعيفة عموما، اعتمدت في حركتها القصوى على الريف المجاور، وكذلك حاجات الطبقات المتوسطة الدخل والفقراء في المدينة ذاتها، أما الأسر الغنية فقد اعتادت التبضع من الأسواق المترفة في دمشق وحلب وبيروت يشترون منها حاجاتهم.

كما اعتمد الصناعيون أنفسهم في تنفيذ بعض المراحل الصناعية على العمال المهرة في الريف، وهؤلاء كانوا في العادة ينفذون ما يطلب منهم في قراهم، دون أن يتكبدوا عناء الإقامة في المدينة. وظل هذا الوضع سائدا، ولم تنتعش صناعتها الا أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حين تراجعت صناعة الحرير الطبيعي – عصب الصناعة في بلاد الشام آن ذاك – في كل من دمشق وحلب، امام الحرير الصناعي المستورد من أوربة، فاستفادت حمص من هذا، وازدهرت فيها صناعة الحرير الطبيعي فارتفعت مكانتها الاقتصادية، وكذلك مستوى الدخل فيها ما أدى بالنتيجة إلى حدوث تحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية غيرت الكثير من معالم المدينة، العمرانية والاجتماعية والثقافية.

سوق الصاغة

أعتبر الذهب منذ اكتشافه مقياسا للرخاء الاقتصادي، فهذا المعدن النبيل حافظ عبر العصور التاريخية على معدل ثابت في كميته خلال عمليات اكتشافه مما ساعد على احتفاظه بقيمة ثابتة له في عمليات التداول الاقتصادي، إضافة إلى أنه معدن مطواع يسهل سكه وتداوله بين الناس، ولم يكن نظام المصارف قد انتشر في بلادنا، وفي مدن كانت مرهونة لسبل اتصالاتها العسيرة، وطرق مواصلاتها البدائية، التي تحكمت سلبا على عمليات نموها في كافة الأصعدة – مقارنة بما هو حاصل الآن في مجتمعاتنا – تصدّر سوق الصاغة عملية تحديد القوة الاقتصادية للمدن.

لقد كان لحجم هذا السوق من حيث المساحة وعدد الحوانيت ولموقعه أيضاً أهمية بالغة في دراسة الوضع الاقتصادي لمدينة ما.

وجرت العادة في الإمبراطورية الإسلامية أن يبنى سوق الصاغة فيها بمنطقة تجاور الجامع الكبير تماما، لسببين:

أولا: الأهمية البالغة للجامع الكبير في المدن، كونه يمثل مركز الفتوى والشورى، يتمركز به رجال الدين ومن أعلاهم مرتبة، فتتم فيه اتخاذ القرارات الأخيرة بالنسبة للزواج، واعادة الزوجة المطلقة إلى زوجها، وغيرها من القرارات الاجتماعية الهامة، وكنتيجة لذلك يخرج الناس بعد الصلاة والمشورة لشراء الذهب. كذلك تفضيل التجار الأغراب القادمين من المدن الأخرى هذا المكان لتأدية الصلاة فيه، ومعظمهم يحبذ شراء الهدايا من الذهب إلى عائلاتهم، فتتم هذه العملية تلقائيا حين تكون الأعمال التجارية الأخرى متوقفة، بينما يفتح هذا السوق أبوابه، لسبب لا يتوجب اغفاله، وهو أن معظم تجار الذهب والعاملين فيه أيضاً كانوا من المسيحيين الذين يعطلون أعمالهم يوم الأحد.

ثانيا: إمكانية هذا السوق من تحديد القدرة الشرائية للناس. في زمن لم تعرف به البنوك ولا المصارف. فتصدر هذا المعدن المركز الأول دون منازع لدى معظم الناس الراغبين في حفظ ثرواتهم من عوامل الزمن، وهذا لا يشمل الأثرياء فقط، بل أعتبر الذهب حصالة الفقير أيام الأزمات، فمصاغ المرأة يحفظ للعائلة كرامتها حين تنوء بها الأزمات.

ونلاحظ في حمص وجود هذا السوق في منطقة ليست بعيدة عن المسجد الجامع فيها، وأيضاً توسطه لمنطقة فيها مساجدا ثلاث. مما يشير إلى رغبة جامحة لكسب المزيد من الزبائن، إضافة إلى صغر حجمه، وقلة عد د حوانيته، أذ لا يتعدى عددها العشرة فقط جميعها صغيرة المساحة واطئة السقف، وككل أسواق الصاغة، زود ببوابتين تغلقان مساءٍ ليكون بمنأى عن عمليات السطو التي يعتبر معرضا لها أكثر من غيره من الأسواقَ، وأيضاً انخفض سقفه كثيرا، وغابت عن هندسته كوى الإنارة والتهوية.



حمام الصغير (الإنترنت)

الصورة القسم البارد من حمام الباشا، وليس الحمام الصغير

أبنية الحمامات

بعد أن استقرت أوضاع الدولة الإسلامية، وضعفت الحاجة لتهيئة الجند إلى حد ما، وتوقفت أخبار الحروب والانتصارات التي كانت تضيف البهجة للحياة العامة، أخذت تزداد الحاجة لدى السكان للمرح وطلب الترفيه عن النفس، ونظرا لكون المدن الإسلامية هي مدن متقشفة بامتياز، فالمسارح وحلبات المصارعة كانت قد أغلقت بعد أن أصبحت المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية، فالإمبراطورية البيزنطية لم تحبذ هذه الرياضة العنيفة واعتبرتها ممارسات وحشية لا تتناسب مع تعاليم الدين فأغلقت المسارح ودور اللهو، وهكذا ورث المسلمون عن البيزنطيين مدنا خالية من الترفيه. لكن الخلفاء الحاكمين قدموا من الصحراء، موطنهم الأصلي، حيث الصيد والفروسية عادة سائدة فحملوها معهم ومارسوها بشغف،

وشكل الاستعداد لحملات الصيد ظاهرة تثير النشاط في المدن لما تحتاجه من معدات للخيل أو للرجال، لكنها ظاهرة اقتصرت على الخاصة من الناس لكلفتها الباهظة. أما حلبات سباق الخيل التي كانت تعقد خارج الأسوار، فبدأت كحلبات مهمتها اعداد الجند، وتحول جزء من نشاطها للهو، فاقتصرت على الرجال دون النساء اللواتي كن يشاهدن السباق عن بعد أحيانا، وضمن ظروف محدودة، لذلك بدأ الاهتمام ينصب أولا على مناسبات الأعياد والأفراح الخاصة، وبما أن الزفاف يحتاج إلى ترتيبات معينة تسبقه، أهمها أخذ حمام ما قبل الزفاف، أصبح شيئاً فشيئاً يشكل ظاهرة اجتماعيـــة، وتقليدا لعب دوراً مهماً في تغيير نمط الحياة الروتينية التي بدأت تسود المجتمعـــات في المدن العربية المحدثة، وتدريجيا تحول الحمام من مكان للتطهر والاغتسال فقـــط، إلى مكان لتجمع الأصدقاء والأصحاب ومسرحا للهو البريء.

ارتبط وجود الحمامات في المدن الإسلامية في البداية، بطقوس الصـــلاة، وان كان بناؤها كمنشأة هامة تقليد اقتبسه العرب عن الرومان.

اقتصر دور الحمامات العامة أولا على عملية الاغتسال والتطهر الـــتي لا بـــد منها لأداء الصلاة لدى المسلمين، وألحقت ملكيتها للأوقاف، فأجَّرتها بـــدورها لأشخاص بغية استثمارها، لقاء مبلغ سنوي يتفق عليه يسدد للأوقـــاف، فيتـــولى هؤلاء إدارتها والإشراف على حسن سير العمل فيها، من حرص على نظافة المكان، وتجديد الأدوات اللازمة للاستحمام، والقيام بأعمال الصيانة الدورية.

وقد تضاعف اهتمام الناس بها مع تزايد ادراكهم لمنافعها الصحية ودخول بعـــض طقوسها ضمن نصائح الأطباء، لقد لعبت الحمامات دورا حيويا في المجـــال الصـــحي، تجلى بالوقت الذي يمضيه المستحم على مصطبة "القميم" كفترة اســـترخاء، ضـــرورية يفرز فيها الجسم المتعب كميات كبيرة من العرق ما يساعد الجسم على التخلص مـــن السوائل الزائدة والسموم التي ترافق عدمَ انتظام وجبات الطعام الغير مدروسة صـــحيا. ويتمم هذا عملية التدليك التي تجري في مقاصير الاستحمام، ودورها الفعال في إراحـــة العضلات المتشنجة اثر الجهد الكبير الذي كانت تتطلّبه الأعمال اليوميـــة المجهـــدة، في تلك الحقبة من الزمن التي اعتمدت الجهد العضلي كوسيلة لأداء كافة الأعمال.

توزعت أبنية الحمامات في بداية عمارتها بمنطقة الأسواق – ومن هنا جـــاءت التسمية الدارجة "حمام السوق"، ومع مرور الزمن الذي رافقه النمو الســـكاني في

المدن، برزت الحاجة الماسة لتوزع هذه المنشآت في أرجاء المدن، ولم يعد تواجدها مقتصرا على منطقة الأسواق بكاف، وبدأت تظهر أبنيتها في الأحياء، وتوزعت هنا وهناك في أرجاء المدن كمنشآت اقتصادية يقوم ببنائها أفراد معينين فتدر عليهم دخلا لا بأس فيه، وتقدم خدماتها مشكورة للحي الموجودة فيه، بحيث تيسر الدخول إليه دون عناء الذهاب إلى منطقة الأسواق المكتظة والبعيدة.

المخطط العام

اتبعت الحمامات في مدن العالم العربي كافة لدى بنائها مخططا واحدا استمد أصوله من الحمام الروماني مع بعض التعديل التقشفي، فقد ألغيت الأقسام الخاصة بالترفيه كصالات الرياضة والتدليك الخاصة، وتم الاحتفاظ بأقسام الحمام الأربع الرئيسة وهي، القسم البارد، قسم تبديل الملابس، القسم الدافئ، والقسم الحار، وترافق هذه التسميات الصفات التي أطلقت عليها في اللغات الدارجة وفق الترتيب نفسه (البراني، المشلح، الوسطاني، الجواني)، إضافة إلى الملحقات الخاصة، وهي غرف التشغيل والمستودعات، وأيضاً بئر المياه.

القسم البارد (البراني)

أكبر أقسام الحمام، يقع مباشرة بعد باب الدخول الرئيسي، ويتألف من قاعة واسعة مربعة وسطها بحرة ماء عذب وتحيطها أربع إيوانات ترتفع مستوى أرضيتها عن مستوى الصالة ويصعد إليها بعدد من الدرجات تختلف من حمام لآخر، ويفضي أحدها إلى ممر يوصل للأقسام الأخرى. وتسقف القاعة عادة بقبة شاهقة الارتفاع ترتكز على رقبة مزودة بنوافذ صغيرة للإنارة، يتفنن البناء عادة في تشكيلها، وتغلق النوافذ بالزجاج، وتثقب القبة في وسطها ثم تسقف بقبة صغيرة ترتكز على سويرات تترك الفراغات بينها مفتوحة لتأمين التهوية اللازمة لهذا المكان، كخروج الهواء الحار ودخول الهواء البارد فتثبت درجة الحرارة ضمن الحد المعتدل. فالقبة المرتفعة تعمل على تحريك الهواء الدافئ ودفعه نحو الأعلى فيخرج من الفتحات الصغيرة، وبالمقابل تدخل كمية مساوية من الهواء البارد، ما يؤدي لتثبيت درجة الحرارة في الصالة.

كما يُضفي أسلوب التسقيف هذا الكثير من الجمال إلى الشكل العام للصـــالة، وأحيانا كان يضاف الزجاج الملون بشكل متناوب مع الفراغ فيعكس مع نور الشمس ألوانا بديعة تسقط مع انتصاف النهار على بحرة الماء. وتستند رقبة القبة على حنيـــات ركنية تؤمن الانتقال من الشكل المربع للصالة في الأسفل إلى الشكل الدائري في الأعلى (صورة رقم 4). وتفرش الأركان بمقاعد خشبية مستطيلة تحتوي علـــى أدراج تحفـــظ فيها ملابس الزبون، وتفرش المقاعد بفرش من الصوف أو القطن للجلـــوس المـــريح، وجميعها تشرف على وسط الصالة حيث بحرة ماء في وسطها نافورة تعمل بشكل دائم لترطب جو الصالة، هذا وتخلو القاعة من النوافذ باستثناء الباب الرئيس.

غرفة تبديل الملابس (المشلح)

تلي القسم البارد مباشرة. يدلف لها الزبون عبر مدخل فتح في أحد الإيوانـــات يوصل إلى مدخل منكسر يؤدي إلى غرفة صغيرة، ويزود بابه بمزلاج يعمـــل تلقائيـــا خلف الزبون فيؤمن اغلاق الباب بشكل دائم، لمنع تسرب الحرارة من الداخل للقسم البارد، وتزود الغرفة بقبة تعمل على تبديد البخار المتسرب، ويتألف المكان غالبا من غرفة مستطيلة، أو مربعة يقتطع جزء منها للمرافق الصحية (المراحيض)، ويزود الجزء الثاني بمساطب ثابتة لوضع حاجيات الزبائن عليها، أو تستبدل بطاولة خشبية متنقلة، وتكون قبة هذا القسم واطئة قياسا مع القبة السابقة، تبنى عادة من الآجر، أو اللـــبن المجفف جيدا بالشمس، وتزود بقمريات من الزجاج للإنارة. هذا ويختلف الشـــكل العام للقبة من منشأة لأخرى، فقد تكون مستديرة الشكل أو بيضيه.

القسم الدافئ (الوسطاني)

يفصله عن غرفة تبديل الملابس باب يغلق بمزلاج لمنع تسرب الحرارة والبخار من الداخل. ويتألف من صالة كبيرة تسقف بقبة نصف كرويـــة، أو بيضـــيه، يتناســـب ارتفاعها مع قبة المشلح، توزع فيها قمريات الإنارة الزجاجية، وتزود جدران القاعـــة بصنابير المياه الساخنة، ولكل منها جرن حجري يوضع تحتها للاســـتعمال، وتكســـى أرضيته ببلاط كاتم تجري تحته قنوات المياه الساخنة لتدفئة الأرض، وتحيط بأرضية القاعة قناة عريضة وضحلة تتدفق إليها مياه الاستحمام التي تنتهي إلى مصارف المـــراحيض،

وتزود القاعة بمقاصير خاصة صغيرة، كجزء هام من تصميم هذا القسم، تشكل كل واحدة منها غرفة صغيرة مستقلة تحتوي على صنبور ماء واحد، وتكون خاصة لمستحم واحد، أو صنبورين بحيث يمكن لأكثر من شخص استخدامها في آن واحد، وكثيرا ما تحجز لعائلة واحدة، أب وأبناؤه، أو سيدة وأولادها، وتغطى المقصورة بقبة صغيرة، وقد تزين ببعض الزخارف الجصية، وهذا طبعاً يتعلق بترف بناء الحمام.

تكون الحرارة عادة معتدلة في هذا القسم، ما يجعله مرغوبا من المسنين، أو مرضى الربو وضيق التنفس الذين لا تساعدهم صحتهم على تحمل الحرارة المرتفعة والبخار الكثيف في القسم الحار من الحمام. وتفضله السيدات اللواتي يصطحبن أطفالهن الصغار معهن.

ويتصل القسم الدافئ مع القسم الحار الذي يليه بباب لا يزود بمصراعين للإغلاق، للسماح للبخار والحرارة في القسم الحار من التدفق إليه لتدفئته ضمن الحد المتوسط للحرارة.

القسم الحار (الجواني)

أهم أقسام الحمام، وأكثرها ازدحاما بالمستحمين، يتألف من صالة كبيرة سقفت بقبة يتناسب ارتفاعها مع سابقاتها، مزودة بقمريات زجاجية للإنارة، كالقباب السابقة الذكر، وتقع في نهاية البناء من الداخل، فتجاور الحرّاق، أي مكان اشعال النار ووجود جفنات الماء الساخن - يطلق عليه محليا اسم "القميم" - ويكون مواجها لباب الدخول، ويزود الجدار في وسطه بمسطبة مرتفعة، يجلس، أو يستلقي عليها الزبون لدى دخوله مباشرة، قبل البدء بالاستحمام لكسب المزيد من الحرارة، كونه الأكثر حرارة، وأحيانا لا تبنى مصطبة، فيستلقي الزبون على الأرض مباشرة، وليس لهذا علاقة بترف بناء الحمام أو فقره، ويكون الجدار الملاصق للحراق مزودا بثقوب أو كوة صغيرة تسمح باندفاع البخار المنبعث من الماء المغلي إلى هذا القسم لرفع درجة حرارته. وتكسى أرضيته أيضاً ببلاط كاتم تجري تحته قنوات المياه الساخنة التي توزع على كامل الصالة لتوزيع الحرارة على كافة أرجاء الصالة. كما تزود الجدران بصنابير المياه الساخنة أما المياه الباردة فتنقل للزبائن وفق طلبهم، وتوزع الأجران اللازمة على كافة مآخذ المياه، وكذلك على المقاصير الخاصة الموزعة

في أطراف الصالة، ويخصص في هذا القسم مقصورة أكثر اتساعا من سابقاها، يعنى بزينتها عناية خاصة تؤهلها كي يطلق عليها اسم "المقصورة الملكية" كناية عن ترفها، وارتفاع أجرها، تحجز عادة من قبل أثرياء المدينة، أو العرائس المقبلات على الزواج، أو تقدم من قبل القائم على الحمام لذوي الحظوة من زبائنه.

ملحقات الحمام

يلحق بأبنية الحمامات جناح خاص لتأمين عمل الحمام كإيقاد النار، واستمرار إيصال الماء للأواني الخاصة بالماء الساخن، وحفظ مواد الوقود، ويقع خلف البناء وله مدخله الخاص، ويتألف من غرفة الدخول، الحراق، ومستودعات حفظ الوقود. ويقع الحراق خلف القسم الحار من الحمام، توضع فيه جفنات التسخين، وهي عبارة عن وعاءين ضخمين من النحاس تصب إحداها ماءها في الأخرى بواسطة أنبوب نحاسي. ولا يسمح للعامل الموكل إليه إيقاد النار الدخول إلى هذا القسم إلا بعد انطفاء النار، فيدخل للتنظيف فقط، نظرا لارتفاع حرارة المكان الشديدة وما يترتب عنها من أخطار. ولدى البدء بالعمل يدفع العامل الوقود عبر فتحة في جدار غرفة مجاورة، ويستخدم روث الحيوانات الجاف لهذه المهمة، لرخص كلفته وطول فترة احتراقه، إضافة إلى توفره بكثرة، يحفظ هذا الوقود في مستودعات خاصة تبنى لهذه الغاية، تكون عبارة عن غرفة كبيرة أو غرفتين واسعتين تسقفان بعقود حجرية، ويدخل إليها عبر بوابة واسعة تسمح بدخول الحيوانات، أو العربات المحملة دون عناء.

المياه

لم تعرف حمص نظام السواقي التي توصل المياه إلى المنازل ومرافق المدينة كدمشق، بل ظلت بيوتها تعتمد على مياه الآبار للأعمال المنزلية، ومياه العاصي ينقلها السقاءين للشرب، وحين شقت الساقية المجاهدية كانت الغاية الأولى منها ري الأراضي الزراعية، وقد بنيت عليها قناة محمولة على أقواس حجرية أوصلت المياه للجامع الكبير، ولحمام الباشا لكنها حالة خاصة لم تعمم على كافة حمامات المدينة، لذلك اعتمدت هذه الأبنية على مياه الآبار لتأمين حاجتها من الماء، وكان لكل حمام بئره الخاص، توزع مياهه إلى غرف التسخين بواسطة الضخ اليدوي،

وكذلك إلى بحرة المياه ونافورتها في القسم البارد، ولم تكن المياه الباردة توزع داخل الحمام عبر قنوات، بل تنقل بدلاء خاصة وفق حاجة المستحمين، ويعمل على نقلها صبية - فتيان يافعين - استخدموا لهذه الغاية، وفي الأيام المخصصة للنساء وظفت سيدات يتمتعن باللياقة البدنية للقيام بهذه المهمة.

بناء الحمام

تبنى الحمامات عادة من الحجارة الكاتمة والصلبة، وقد بنيت في حمص من الحجارة البازلتية، وهو حجر البناء المستخدم في المدينة، ويكون بناء الحمام متينا، ليتحمل الضغط الذي يتعرض له نتيجة الازدحام الشديد في الداخل، وكذلك ضغط الأبخرة والرطوبة المرتفعة في داخله، ولا يزود بنوافذ أو كوى مفتوحة على الخارج - ولو كانت صغيرة الحجم - منعا لتسرب الحرارة والبخار إلى الخارج، وتتولى هندسة البناء الداخلية عملية توزيع درجة الحرارة والرطوبة في أرجاء الحمام.

هذا وتكون جدران الحمام عادة سميكة، بحيث تؤمن عامل عزل وحماية من العوامل الجوية المتقلبة في الخارج، وتطلى جدرانها بطينة مصنوعة من الكلس الممزوج بالقنب - وهو مادة طاردة للجراثيم -، ثم تلون بألوان فاتحة يغلب عليها الأبيض، ويستخدم الكلس كمادة رئيسة في تركيب اللون لمنع انتقال الأمراض من شخص لآخر، ولاستخدام اللون الأبيض بكثرة في الحمامات وظيفة أخرى وهي منح المستحم إحساسا مضاعفا بالنظافة، ويتم تجديد الدهان مرة كل عام، أما الأرضيات فتكسى ببلاط عازل، كالآجر أو الحجر المصقول بعناية، بمختلف أنواعه وفق مادة البناء المتوفرة، وقد يستخدم أيضاً الرخام في كسوة أرضياته، أما المجزع منه فيستخدم لكسوة أرضيات القسم البارد لجماليته كون الزبائن يمضون فيه فترة طويلة فيشكل عامل جذب مهم لهم، وقد يعمم بلاط الرخام العادي على مختلف الأقسام، وفق ترف البناء. أما قنوات المياه الحارة التي ذكرت أنها تجري تحت الأرضيات فتصنع من الآجر أو الحجر الكاتم، كألواح البازلت، أو الحجر الكلسي المصقول بعناية وتنتقى الأنواع الكاتمة منه - والأخير لم يستخدم في حمص لتوفر مادة أفضل وهي البازلت باستثناء العصياتي - فترصف أرضية القنوات وجوانبها فقط، ويغطى سطحها مع كسوة أرضيات الحمام بالبلاط، لضمان نقل أفضل للحرارة إلى الأعلى.

أما قنوات الماء البارد فلا تصل إلى أماكن الاستحمام، وان كان هذا حدث في فترة لاحقة ومتأخرة تاريخيا عن عصر إنشاء هذه الأبنية، بينما تسحب المياه الباردة ضمن قناة خاصة إلى أماكن الخدمات الصحية "المراحيض" حيث تؤخذ من صنابير موزعة على الجدران، وطبعاً يخلو القسم البارد من قنوات المياه الساخنة تحت أرضيته، كي لا تتسبب برفع درجة حرارته. بينما تزود البحرة بأنابيب توصل الماء البارد إليها.

ذكرت سابقاً أن هندسة بناء هذه المنشأة تولت مهام توزيع الحرارة فيه، وقد حدث هذا ضمن شروط لم تخرج عنها كافة الحمامات، أي كان المكان الذي بنيت فيه لأهميته البالغة، فقد نقلت الخبرة في بناء هذه المنشآت الهامة من جيل إلى جيل، عبر الزمن، وأصبح لها بنّاؤوها المهرة يتوارثون المعرفة ويورثوها أيضاً.

فالقسم البارد يسقف بقبة مرتفعة جداً تتولى رفع الهواء الحار إلى الأعلى ومن ثم يصرف إلى الخارج عبر الكوى الصغيرة المفتوحة - غالبا عكس اتجاه الريح - في رقبة القبة الصغيرة التي تعلو القبة الرئيسة، ويعزل من الداخل بواسطة باب له مزلاج يفصل المشلح عن القسم الدافئ، ويتولى المدخل المنكسر الذي يفصل هذا القسم عن غرفة تبديل الملابس دوره في منع الحرارة من التسرب إليه أثناء دخول المستحمين وخروجهم على مراحل، أو أثناء تنقُّل العاملين في الحمام لنقل دلاء الماء البارد وإحضار المناشف.

القسم الدافئ "الوسطاني" يخلو أولا من النوافذ التي تستخدم في الأبنية للإنارة وتبديل الهواء، ويستبدل بسقف من قبة واطئة تبنى من الآجر، أو اللِبن، ثم تطيَّن من الداخل بطينة ناعمة قوامها القش الناعم جداً ممزوجاً مع الكلس، تتولى مهمة حفظ الحرارة وتمنع تسرب البخار أيضاً، وتزوَّد بقمريات زجاجية ملونة تغرس في جسم القبة تسمح بدخول الضوء، توزَّع ضمن تشكيلات هندسية بديعة تمنح الصالة جمالاً إضافياً، يشكل عامل جذب مهم للزبائن (صورة رقم 5).

القسم الحار يستمد حرارته من خلال فتحة في الجدار الذي يفصله عن الحراق تسمح باندفاع بخار الماء الساخن من جفنات الماء نحو الصالة فيرفع حرارتها، ويتم التخلص من الحرارة الزائدة بتصريفها نحو القسم الدافئ عن طريق الباب المفتوح بينهما، وبهذا يمنع الضرر الذي قد يلحق بالمستحمين إزاء حبس الحرارة في حيز ضيق.

أن تسقيف أجنحة الحمام الدافئ، والحار، والمشلح، بالقباب يعمل على تحريك الهواء بشكل دائم، ومن ثم توزيع الحرارة في أرجاء المكان، فيؤمّن درجة حرارة متساوية وجيدة ضمن شروط صحية ملائمة، ويستعمل اللِبن أو الآجر كمادة ضرورية لتسقيف القباب، فهذه المادة تتمتع بقدرتها على امتصاص الرطوبة الزائدة، فلا ترتفع إلى مستويات قد تسبب أذى للمستحمين، كما تتولى قنوات المياه الساخنة تحت أرضية البناء مهمة تسخين الأرضية فلا تتبدد الحرارة نتيجة ملامستها للبرودة، فيحافظ الحمام على درجات الحرارة ومستوى الرطوبة المطلوبين ليكون مكانا صحيا لزبائنه من كافة الأعمار، مع أخذ ظروفهم الصحية بعين الاعتبار.

طقوس الاستحمام

كان لعملية الاستحمام في الحمامات العامة، أو ما يطلق عليه بالتعبير الدارج "حمام السوق" طقوسها الخاصة، إذ يتم الدفع أولا لدى القائم على إدارة الحمام، وقد يوظف هذا شخصا يثق فيه لهذه المهمة، وطبعاً يستبدل بامرأة في الفترة المخصصة للنساء، ويجلس هذا بالقرب من باب الدخول، ثم وبعد دفع النقود وإحصاء عدد الأشخاص بدقة يدلف الزبون إلى القسم البارد ثم يتحول إلى غرفة تبديل الملابس حيث يخلع ملابسه الخارجية ويحفظها له الشخص المكلف ضمن قطعة قماش بيضاء اللون يضعها بعناية على طاولة خشبية ريثما ينقلها لتحفظ في أحد الأدراج المعدة لهذا الغرض، ثم يلف جسمه بالمنشفة، ويخلع الزبون عادة ثيابه الداخلية أثناء عملية لف جسمه بالمناشف، وتتم هذه العملية بمنتهى البراعة يدرب عليها المشرف على حفظ المناشف جيدا. ففي اللحظة التي يهم فيها الزبون بخلع ثيابه الداخلية يفرد الرجل المنشفة بحيث تشكل حاجزا بينهما يمنع الرؤية الغير محتشمة، ثم يلف المنشفة حول جسم الزبون، ويدخله إلى غرف الاستحمام، فيدخل الزبون إلى القسم الحار مباشرة حيث يستلقي، أو يجلس فقط، وفق رغبته، على مصطبة التعرق، ويستمر جلوسه أو استلقائه من عشر دقائق حتى نصف ساعة لا غير ينتقل بعدها إما إلى إحدى المقاصير، أو إلى أحد مآخذ المياه المتوفرة في الصالة، ولهذا علاقة بكمية النقود التي دفعها، فلكل شيء ثمنه، وهنا يبدأ عمل المدلك، الذي يقوم بتدليك جسم المستحم، ومعالجة عضلاته المتشنجة، التي تكون

قد اكتسبت ليونة نسبية لدى عملية التعرق، وغالبا يكتسب المدلك خبرة جيدة في عمله هذا، تمنحه سمعة ترفع عدد زبائن الحمام الذين يقصدونه لهذه المهمة، وقد أثبتت الدراسات الحديثة الفائدة القصوى التي يكتسبها الجسم من عملية التعرق التي تساعد على التخلص من السموم المتراكمة في الجسم من التلوث، وعدم انتظام وجبات الطعام الغير مدروسة، مما أدى إلى ابتكار الطرق الحديثة للتعرق بواسطة حمامات الساونا، وأدى إلى انتشار "الحمام التركي" في أرجاء المدن الأوربية حديثا، وتتمم عملية التدليك هذه المهمة ما يكسب الجسم مزيدا من الراحة التي يكون المستحم بأمس الحاجة إليها خاصة بعد فترة عناء تعرض لها جسمه اثر الأعمال المرهقة التي كان يقوم بها الإنسان في ذلك العصر، سواء خلال ممارسته لنشاطاته العادية، أو مزاولته لحرفته، في فترة لم تكن تقنيات العصر الحديث قد دخلت إلى صلب الحياة، و لم تظهر الآلات المُعينة، كما هو الحال الآن.

بعد الانتهاء من الاستحمام، تبدل مناشف الزبون من قبل رجل يطلق عليه الناطور بالطريقة السابقة، ثم ينتقل إلى المشلح حيث تبدل المناشف مرة ثانية، ومنها للقسم البارد حيث تبدل المناشف للمرة الثالثة. وهكذا يكون جسم المستحم قد تعرض للانتقال التدريجي للحرارة دون أن يبذل كبير عناء لهذا، وفي القسم البارد يجلس الزبون فترة من الزمن على أحد المقاعد المعدة لهذه الغاية يقدم له خلالها فنجان من الزهورات أو الليمونادة كمشروب منعش، ثم تبدل مناشفه للمرة الأخيرة قبل أن يرتدي ملابسه ويغادر.

هذا بالنسبة لعملية الاستحمام، وإلى جانب هذا كانت الحمامات تقدم خدمات إضافية لزبائنها، كنزع الأشعار الغير مرغوب فيها بالنسبة للنساء من عجينة السكر. وكذلك معالجة الشعر المتعب وصبغه بالحناء، تقوم بها سيدة تدعى "الماشطة". أما الرجال، فيتم نزع الشعر الغير مرغوب به، لمن يريد، بصنع عجينة خاصة من مزيج الكلس والماء والزرنيخ بنسب مدروسة يتقنها مساعد الناطور.

أما عادات الاستحمام ومواعيدها، فكانت للنساء طقوسهن الخاصة ومواعيدها المرتبطة بالتقلبات الفزيولوجية التي يتعرضن لها خلال حياتهن، إضافة لمسؤولياتهن كأمهات عليهن العناية بالأطفال واصطحابهم معهن لمن لم يبلغ التاسعة من الذكور، وبعد ذلك توكل المهمة للآباء.

دأبت النسوة الذهاب إلى الحمام بشكل دائم حرصا على نظافتهن طبعا، إضافة إلى نظافة أطفالهن. إلا أن الحاجة الماسة كانت تأتي بعد الانتهاء من الدورة الشهرية، هذا في الأحوال العادية، أما الحالات الاستثنائية فتكون بعد الولادة، وبالضبط بعد مرور أربعين يوما على الولادة، ولهذا الحمام طقوسه الخاصة، إذ ترافق المرأة عادة والدها وحماها، وبعض المقربات من القريبات والصديقات، تتم دعوهن خصيصا للمشاركة في هذا الحمام الاحتفالي، فيشرفن جميعا على تعريض السيدة لفترة تعرق شديدة، قد تستمر ساعة كاملة، لاعتقادهن أن هذا يطرد سموم الحمل من جسد المرأة، ويؤكد سلامتها من الأخطار التي كان الاعتقاد السائد يفيد بأنها تظل ملازمة لها مدة أربعين يوما بعد الولادة.

وما يتعلق بالمناسبات الخاصة، كالزواج، فكان للحمام دور آخر... إذ يتم اعداد العريس، من استحمام وتدليك وتبديل ملابس أيضاً، ولقد جرت العادة أن يخرج الرجل من الحمام مرتديا ملابس الزفاف ثم ينطلق موكبه وأصدقائه للاحتفال ولاصطحاب عروسه إلى منزل الزوجية. وجرت العادة حجز حمام آخر يتفق عليه لإعداد العروس، تلقى خلاله العناية المطلوبة والمناسبة للزفاف، تعود بعدها لارتداء فستانها ثم الانضمام للحفل المقام في منزل ذويها.

كما عرفت الحمامات نوعا من سهرات اللهو البريء يقوم فيها الأصحاب من الشباب بين الحين والآخر، يصطحبون خلالها آلاتهم الموسيقية، وأنواع الطعام، فيحجزون الحمام بكامله، ويمتد سمرهم حتى ساعات الفجر الأولى، يشاركهم سهرتهم تلك القائمون على الحمام مع عمالهم ويشاطرونهم طعامهم وغناؤهم.

أبنية الحمامات بحمص

حتى عام 1887 كان في المدينة داخل الأسوار سبع حمامات عامة، إضافة إلى أربع حمامات أخرى خارج المدينة المسورة، تم بناءهم لخدمة المسافرين من التجار العابرين، وخدمة سكان قرية الخالدية، وكذلك الحجيج الذين يأتون إلى مسجد الصحابي خالد بن الوليد للزيارة والتبرك أثناء ذهابهم لتأدية مناسك الحج، أو أثناء عودتهم. وإذا أردنا أن نقدم مقارنة مع المدن الأخرى نرى الفارق الهائل بينهما

فابن جبير ذكر في القرن الثاني عشر وجود أكثر من مئة حمام في دمشق، ولم يأت على ذكر سوى حمام واحد في حمص، وإن أشارت الدلائل إلى وجود حمامين اثنين، لكن الفرق يبقى مثيرا للدهشة.

لقد أثرت الكوارث الطبيعية التي أصابت حمص خلال تاريخها سلبا على تعداد سكانها، وفقدانها لأهميتها السابقة التي حصلت عليها أثناء قيام الخلافة الأموية، ما نتج عنه ركودا اقتصادياً شل حركتها، وأثر سلبا على مستوى المعيشة فيها، وغابت عن شوارعها الحركة التجارية القوية التي عهدتها أيام ازدهارها، ومن البديهي أن يؤثر هذا سلبا على صعيد النمو العمراني. حيث تأثرت أولا المنشآت العامة كالخانات والحمامات. فالحاجة القصوى لها لم تعد تتعدى تلبية حاجات السكان المحليين، وبعض الأغراب كتجار الأرياف المجاورة الذين يأتون للتبضع أو بيع بعض منتجاتهم البسيطة، وكذلك بعض الزوار من الأرياف اللذين يستغلون وجودهم في المدينة لورود الحمام والتمتع بمباهجه، إذ اقتصرت هذه الخدمة على المدن بينما خلت الأرياف منها لعدم جدواها الاقتصادية.

إن نمو الأعمال التجارية يعد واحدا من أهم أسباب دوافع نمو العمارة وتطورها، وهكذا ما أن بدأت بوادر الانفراج الاقتصادي تلوح في أفق المدينة نهاية القرن التاسع عشر، إثر استفادة مدينة حمص من حالة الركود الاقتصادي التي طالت صناعة الحرير في كل من مدينتي دمشق وحلب، فزاد صانعيها عدد أنوالهم، وتلا هذا قدوم الكثير من عمال النسيج للاستفادة من فرص العمل الجديدة في المدينة، وتلا هذا طبعاً قدوم التجار وازدهار الحركة التجارية، وتطلب هذا النمو المفاجئ الحاجة لأبنية عامة جديدة تلبي احتياجات المجتمع والسوق، وطبعاً كانت الحمامات من بين أوليات الإعمار، فتم بناء الحمام العثماني داخل منطقة الأسواق، إضافة إلى عدد آخر خارج منطقة الأسوار، كحمام الصفا، الثغرة، التجار والنزهة، بعد أن خرجت حمص عن أسوارها وبدأت حركة امتدادها في المناطق المحيطة، كالخالدية، الحميدية، جورة الشياح، والبغطاسية. لكن ما وصلنا عن هذه الأبنية قليل جداً كونها هدمت إثر ظهور الحمامات الخاصة في البيوت، وانتفاء الحاجة للحمامات العامة، ورغبة السكان بالاستفادة من رقعة الأرض التي تشغلها.

قائمة بالحمامات التي بنيت في المدينة القديمة ضمن الأسوار:

1	حمام الصغير	عصره أيوبـي	منطقة الأسواق القديمة	يستخدم متجرا للألبسة
2	حمام الباشا	عصره أيوبـي	منطقة الأسواق القديمة	لا يزال يعمل
3	حمام المسدي	عصره عثماني	منطقة باب الدريب	هدم
4	حمام الذهب	عصره عثماني	حي الزاوية	هدم
5	حمام الجديدة	عصره عثماني	منطقة الأسواق القديمة	هدم
6	حمام السراج	عصره مملوكي	حي باب تدمر	مغلق
7	حمام العصياتي	عصره عثماني	حي باب الدريب	ورشة أخشاب
8	الحمام العثماني	عصره عثماني	منطقة الأسواق القديمة	لا يزال يعمل

إن نظرة سريعة إلى القائمة السابقة تفيدنا بأن الأبنية الخمس الأولى هي الأقدم، وقد ورد ذكرها جميعا في يوميات محمد المكي التي كتبها بين عامي 1100 و1135 للهجرة الموافق لـ 1688 و1722 ميلادي بينما لم يرد في المذكرات ذكر أي من الحمامات الأخرى، وهي العصياتي رغم أهميته البالغة، أما الحمام العثماني فبني بعد كتابة المذكرات بقرنين من الزمان.

من أقدم الحمامات في حمص هو الحمام الصغير، لكن التمعن في بنائه يشير إلى مرحلتين مختلفتين. إذ يبدو القسم البارد منه أكثر حداثة من القسمين الداخليين – أي الفاتر والحار – فارتفعت قبة البناء وطراز عمارتها إضافة إلى توسعة مساحة هذا القسم وزود ببحرة ماء بارد وسطها نافورة، إضافة إلى أسلوب بناء الحنيات الركنية للانتقال من الشكل المربع الذي يحدد جسم القاعة إلى الشكل الدائري للقبة التي سقفت فيها الصالة.

الحمام الصغير

أقدم حمامات المدينة، في جناحيه الدافئ والحار، وأكثرها فقرا بالزخرفة والعناصر المعمارية التي اشتهرت فيها هذه الأبنية بشكل عام. ولا يمكننا الجزم بتاريخ محدد له، لكن الأستاذ ماجد الموصلي أرجعه إلى العصر الأيوبي، ومن جهتي لا يمكنني تأكيد الأمر لفقدان لوحة التأسيس، فطراز عمارة الأجنحة الداخلية تشير إلى قدمه، كسماكة الجدران الفاصلة بين الأجنحة وعدم انتظام عمارتها، إضافة إلى ضيق ممراته المؤدية للداخل وخلوه من الزخرفة يقدمان دليلاً على الفقر

المدقع – وهي الآفة التي عانت منها المدينة وأثرت علـــى تواصـــلها مـــع المـــدن الأخرى – والأهم هو انخفاض مستوى أرضيته كثيرا عن مستوى الطريق المجـــاور بحيث ينـــزل إليه بدرج من تسع درجات، فيما بنيت بقية الحمامات على مستوى الطرقات المحاذية لها، هذا ما يتعلق بالأجنحة الداخلية، أما القسم البارد فهو بنـــاء عثماني صريح يتسم بالسعة وارتفاع القبة، وقد ذكر في مخطوط "محمـــد المكـــي" الانتهاء من عمارته عام 1104 للهجرة/1692 ميلادي.

الوصف

يدخل إليه عبر باب صغير يفضي إلى درج ينتهي بعتبة على يمينه غرفة واسعة استخدمت لحفظ حاجيات الزبائن، ثم درج آخر صغير يؤدي إلى القسم البارد.

القسم البارد

يتألف من قاعة واسعة تحيط بها أربع أقواس مفتوحة على مساطب بمســـتوى الأرض فرشت بالأرائك، وقد رفعت مسطبة الضلع الغربـــــي درجـــتين بحيـــث تشرف على كامل الصالة، وكانت معدة كمجلس للعريس أو العروس.

القسم الفاتر

يتقدمه مكان تبديل الملابس، والجزء المخصص للمراحيض، ثم قاعة واســـعة يتقدمها قوس واسع غير منتظم، ثم مقصورتي استحمام.

القسم الحار

يفصله عما سبقه ممر قصير يؤدي إلى قاعة صغيرة جـــداً زودت بمقصـــورتين صغيرتين جدا. (الشكل رقم 2)

ملاحظة

ذكر أسفل الصورة المعروضة بداية البحث أنها للحمام الصغير، بينما تعـــود لحمام الباشا، وتم عرضها لتقديم فكرة عن القسم البارد لهـــذه الأبنيـــة، فـــالفكرة الإنشائية واحدة، والاختلاف يكون بمساحة البناء، وتفاصيل الزخرفة الخاصة بكل منها. أخذت الصورة عن الإنترنت.

حمام العصياتي

يتميز حمام العصياتي بتخطيط معماري متقن وجميل، وغنى بالعناصر الفنية المترفة، مع مراعاة متانة البناء وطاقة استيعابه للزبائن.

تشير دراسة مخطط الحمام، والعناصر الفنية التي يزخر فيها البناء للوهلة الأولى إلى عمارة العصر المملوكي المترفة، كالقباب الصدفية الشكل والأقواس المخموسة، والتزيين بالمقرنصات، ناهيك عن الضخامة والإغراق في الزخرفة، لكن لدى العودة إلى مصادر تاريخ المدينة خلال العصر المملوكي لا نجد أي ذكر لهذا البناء خلال تلك الفترة، رغم ورود اسم العائلة في أكثر من مصدر، أيضاً لدى تتبع مجريات الأمور في المدينة من خلال يوميات "محمد المكي" الذي ذكر تفاصيل الأحداث خلال الفترة الممتدة بين عامي "1100، و1132 للهجرة"، ومنها الكثير مما له علاقة مباشرة بحمامات المدينة، كالزواج، وتبديل أدوات الاستحمام - إعادة صب النحاسيات - وغيرها من النشاطات. و لم يأت على ذكر حمام العصياتي، وهذا أمر لا يمكن تجاهله في مدينة صغيرة كحمص خاصة أنه من أكبر الحمامات في المدينة وأجملها على الإطلاق، ولا بد له أن شهد الكثير من الأحداث الهامة في الفترة التي كتبت فيها المذكرات، ما يرجح أن يكون بني في العصر العثماني ولكن وفق طراز العمارة المملوكية. وهذا ينفي ما ذكره الباحث ماجد الموصلي عن عمارة الحمام في العصر المملوكي ثم تجديده في العصر العثماني.

دليل آخر على ما ذكرته سابقاً وهو حجر التأسيس، فأمام المدخل الرئيس للبناء لوحة حجرية سطرت عليها الأبيات التالية:

بذا الحمام تنشرح الصدور

بداخله النعمة والحبور

زخارفه تقر بها عين

كذلك ماؤه العذب الطهور

على يد مصطفى الشام تجلا

عروسا تزهو لها خدور

جزاؤك يا ابــن مــدور في بنــاه

بــأعلى جنـــة المـــأوى قصـــور

بمــــا ســـــاده للنـــاس نفعـــا

بتـــاريخ زهـــر انتشـــا الســـرور

1261هـ

وردت في الزاوية السفلى، وبخط صغير كلمة "جدد" وهذا فتح باب الخلاف.

لدى تحليل الأبيات نلاحظ:

ورود اسم شخصيتين لهما علاقة ببناء الحمام، "مصطفى الشام" وابن "مدور" الأخيرة عائلة معروفة في حمص، ما يتعلق بالاسم الأول فهناك احتمالين الأول قــد يقصد به "الشامي" فان صح فهي عائلة من حمص، لكن المصادر التاريخية لم تــأت على ذكرها كعائلة لها جذورها القديمة. أما إن قصد منها النسبة إلى دمشق الشام، فيعني هذا وجود شراكة بين ابن مدور ورجل من دمشق اسمه مصطفى. من جهتي أرجح التفسير الثاني كونه يبرر ترف البناء الكبير وهو أمر غير معتــاد في مدينــة عانت الكثير من الضيق الاقتصادي خلال الحكم العثماني، وتبدو أبنيتها العائــدة لتلك الفترة بمعظمها فقيرة وبسيطة، باستثناء الربع الأخير من القرن التاسع عشــر، وما يليه، وهي فترة تلي تاريخ بناء الحمام.

تؤكد الأبيات على إتمام بناء الحمام في عام 1262هـــ وليس تجديده فالشاعر يتغنى كثيرا بأسلوب البناء والزخارف المترفة التي زين فيها ما يشير على أن البنـــاء محدث، ولم يكن قائما من قبل، ثم جدد، فالشاعر فتن بما رآه قبل أن يكتب أبياتـــه. أيضاً أشار وبوضوح إلى الفائدة الكبيرة التي كسبها الحي من إقامة منشأة كهذه فيه أصبحت الحاجة إليها كبيرة، هذا إن لم تعم الفائدة المدينـــة الصـــغيرة بمســـاحتها بأكملها. ونلاحظ التمني للباني بدخول الجنة، أما كلمة "جـــدد" الـــتي وردت في الزاوية فتشير إلى بعض الإصلاحات اللاحقة التي جرت عليه، ليس إلاَ.

إن بناء الحمام على الطراز المملوكي أمر لم يخرج عن مســـار الســـبل الـــتي سلكتها العمارة عبر تاريخها، بل كان أمر شائع في لغتها، وتكرر على طول الدولة

الإسلامية وعرضها، فبناء الأبنية وفق طرز عصر سابق كان رائجا جدا، بل ومرحب فيه من قبل الناس.

وصف البناء

يدخل إليه عبر بوابة حديدية محدثة تفضي إلى غرفة من الاسمنت المسلح. فهذا الجزء من البناء هدم لدى توسعة الزقاق المجاور وتحويله إلى شارع يسمح بمرور السيارات الحديثة، ثم نقلت حجر التأسيس لمكانها أعلى الباب الجديد، ومن هذا القسم ندخل مباشرة إلى أول أجنحة الحمام.

القسم البارد

يتألف من قاعة فسيحة مربعة الشكل سُقف أعلاها بقبة كبيرة ترتكز على رقبة مزينة باثني عشر كوة صماء أعلاها قوسا مدببة (الشكل رقم 2)، ولتأمين الإنارة المطلوبة زودت القبة بدء من منتصفها بأربع نوافذ مفتوحة على الخارج ومزودة بزجاج شفاف، تنتهي في أعلاها بقوس مدببة، والقبة أيضاً مثقوبة في وسطها وقد سقف الثقب بقبة صغيرة ترتكز على رقبة مثمنة الأضلاع زودت بفتحات تنتهي بقوس مدبب للتهوية والإنارة، وأيضاً للسماح للرطوبة الزائدة بالتسرب إلى الخارج، إذ يحتاج هذا القسم لعملية تبديل هواء مستمرة.

ذكرت أن القاعة مربعة سقفت بقبة دائرية مرتفعة، وللانتقال من الشكل المربع إلى الدائري صنعت حنيات ركنية (صورة رقم 4) زينت بكاملها بزخرف المقرنصات ما أضفى عليها فخامة معمارية لم نشاهدها في بقية أبنية المدينة. وفي وسط القاعة أسفل القبة وضعت بحرة زودت بنافورة ماء عذب مثمنة الشكل، لكن القائم على البناء أخبرني أنها تعود إلى مقهى المنظر الجميل، فالبحرة الأصلية فقدت من زمن ليس بقصير.

تحيط بالقاعة أربع أقواس مدببة من النوع المخمس – في لغة الهندسة له خمس مراكز – فتحت جميعها، باستثناء قوس المدخل، على مسطبة مرتفعة فرشت بالأرائك والمساند لراحة الزبائن بعد الاستحمام.

قسم تبديل الملابس

ويدخل إليه عبر باب أعلاه قوسا صدفية، ويتألف من قاعة مستطيلة سقفت بعقد طولي ينتهي بقوس مدبب يفضي إلى ممر طويل منكسر، على يمين القسم الأول باب يؤدي إلى المرافق الصحية "المراحيض" بينما يؤدي الثاني إلى الجناح الثاني من الحمام. زود هذا الجناح بباب جانبي يوصله بالخارج عبر ممر طويل قبب بعقد طولي، يذكر أنه خصص لأصحاب الحمام يدخلون إليه دون الحاجة للمرور بالمحاسب، كما أنه كان يفتح أحياناً لدخول السيدات من الأقارب. ولهذا المدخل وظيفة إنشائية تمنع تسريب الحرارة نحو القسم البارد.

القسم الفاتر

ويتألف من قاعة سقفت بقبتين بيضاويتي الشكل يفصلهما قوسا مدببة، في القسم الأول عقد على جانبيه أيوانين أغلقا فيما بعد بجدار حديث يصل إلى منتصف الإيوان، واستخدما كمكان استحمام خاص، وكان الفقراء يستخدمون هذا المكان بشكل جماعي ما يوفر عليهم بعض النفقات. القسم الآخر زود بمقصورتين خاصتين، زينت الأولى بقبة أعلى السقف يحيطها من الأسفل شريط من المقرنصات (الشكل رقم 3). الثانية سقفت بقبة جميلة مضلعة ترتكز على حنيات ركنية صدفية الشكل يتلاءم والقبة في الصالة.

القسم الحار

قاعة مثمنة الأضلاع سقفت بقبة نصف كروية أضيئت بقمريات موزعة على شكل زخرفة من نجوم مثمّنة متتالية داخل بعضها، ولهذا القسم أربع أواوين متقابلة، وأربع مقاصير. الإيوان الأول هو مدخل الجناح، واجهته عقد مدبب على جانبيه محرابين غائرين أعلاهما قوسا مروحية خماسية الفصوص، في الجهة المقابلة إيوان زين طرفاه بزخرفة تماثل المحرابين لكنها ليست غائرة، يلي الإيوان بيت النار ويلاحظ عدم وجود مصطبة للتدليك على غرار بقية الحمامات في المدينة، بل كان المستحم يستلقي على الأرض مباشرة، هذا ويخلو هذا القسم من المقاصير أو مآخذ المياه.

الإيوانان الآخران سُقف كل منهما بقبة صدفية وزُود كل منهما بمقصورتين، وقد زينت المقاصير جميعها بالقباب وغرست فيها قمريات الإنارة، وتفنن المعماري في زخرفة القباب فهي إما زينت بالمقرنصات أو بقباب صدفية أحيطت بشريط من الأقواس المدببة.

الحمام العثماني

أحد الأبنية الجميلة والمترفة في المدينة، ومن أكثرها حداثة. عرف بهذا الاسم نسبة إلى عثمان آغا الجندي الذي بناه عام 1315 للهجرة، ولا يزال ملكا لهذه العائلة حتى الآن. يذكر أن بانيه قام بهدم سوق القطن وأقام مكانه الحمام.

للبناء بوابة جميلة بنيت ضمن محراب ينتهي بقوس مدببة، أعلى الباب زين بقوس من صنجات مزررة يتناوب فيها حجر الرخام الأبيض مع البازلت، تعلوه لوحة التأسيس وقد سطرت عليها الأبيات الشعرية التالية:

نعم النعيم لقاصدي والداني
حمام أنس محكم البنيان
تجري على نيرانه أنهاره
بتسلسل في أبدع إتقان
ينبيك حسن بنائه عن مائه الـ
عذب المزيل برودة الأحزان
قد تم في عون الإله بناؤه
وما حماه من الأذى بأمان
وإلى بني الجندي سما تجديد
وبنوه حسب الجهد والإمكان
يبري الضنى أرخ بماء طيب
هذا نعيم الحور والولدان

زود المدخل بباب مزدوج يمنح الحمام مزيدا من الخصوصية، كما يحمي الداخل من تدفق التيارات الهوائية، علما أن الباب الخارجي بني على الضلع الغربي للبناء ما يجعله بمواجهة التيارات الهوائية الشديدة.

القسم البارد

أكبر الأقسام، يتألف من قاعة مربعة تحيطها أربع أواوين واجهة كل منها قوسا مدببة، تليها مسطبة مرتفعة فرشت بالأرائك الخشبية المنجدة بالجلد وترتفع عن مستوى القاعة بثلاث درجات، وسط القاعة بحرة ماء عذب، القبة سامقة الارتفاع زينت رقبتها باثني عشر نافذة أعلاها قوسا مدببة، كما زودت القبة بأربع نوافذ لمنح المكان مزيدا من الإنارة، والقبة مثقوبة في وسطها ومسقوفة بقبة صغيرة ترتكز على سويرات حجرية، زينت الأرضية برخام مجزع (الشكل رقم 4).

قسم تبديل الملابس

غرفة مستطيلة الشكل زين الجدار المواجه لباب الدخول بزخرفة مكونة من قوس مشرعة يتناوب فيها الحجر الكلسي مع البازلت يؤطرها باب مسمط، سقفت بقبة بيضية بنيت من الآجر غمست فيها قمريات ملونة للإنارة، كالعادة يقسم إلى جناح المنافع الصحية، وهذا وزوّد حديثاً بحمام ساونا معاصر، وأيضاً مغسلة من البورسلان، ثم مكان التبديل حيث الطاولات الخشبية المخصصة لوضع الملابس أثناء عملية تبديلها.

القسم الفاتر

قاعة متقنة العمارة مستطيلة سقفت بقبة بيضيه ترتكز على حنيات ركنية على الزوايا، غمست فيها قمريات زجاجية ملونة، زودت القاعة بثلاث مآخذ للمياه وثلاث مقاصير خاصة.

القسم الحار

قاعة واسعة مستطيلة سقفت بعقد بني من الآجر غمست فيه قمريات الإنارة، وعلى الزوايا حنيات ركنية يتقدمها إيوان ومسطبة بمحاذات بيت النار يفصل مكان التعرق والتدليك عن أماكن الاستحمام التي ازدحمت فيها القاعة، ولهذا الجناح أربع مقاصير خاصة.

الفصل الثالث



الأحياء السكنية

تبدأ الأحياء السكنية بالظهور إثر الخروج من منطقة الأسواق مباشرة، وتمتد على كافة الجهات، الشرقية، الجنوبية، الغربية، أما الشمالية فيقف سور المدينة حائلا أمامها. وتقسم إلى ثمان أحياء هي، حي باب تدمر، الفاخورة، باب الدريب، جمال الدين، بني السباعي، ظهر المغارة، باب هود، وباب السباع. وكل حي يقسم إلى عدد من الحارات الأصغر، والأصغر... وتزود الأحياء والحارات أيضاً بأبواب قوية تغلق ليلا تفصلها عن بعضها، وتنتشر الطرقات والدروب والأزقة الضيقة بينها، فتوصلها ببعضها البعض، من حيث كونها المسالك التي يعبر المارة عليها. اما من حيث المساحة فلا تخضع مساحة الحي لنظام معين، باستثناء الحاجة السكنية. فهناك الأحياء الواسعة جداً كحي باب السباع، وباب هود، كذلك حي باب الدريب. أو متوسطة الاتساع كحي باب تدمر وجمال الدين، وبني السباعي، والأحياء الصغيرة نسبيا كحي الفاخورة وظهر المغارة. أما من حيث الكثافة السكانية لكل حي، أو نسبة الاكتظاظ فيها فلم أعثر على وثائق يمكن أن

تقدم الحقائق المطلوبة، سوى ما يتداوله الناس أو التوقعات التي لا يمكن الأخذ بها، ومعظمها يعتمد على عمليات إحصاء جاءت متأخرة. إضافة إلى تهدم الكثير من البنية المعمارية للمدينة سواء في الماضي القريب، أو خلال السنوات العشر الأخيرة، حين أصبحت الأبنية الطابقية الحديثة مطلبا للجميع. فلم يعد لدراسة نسبة البناء إلى التعداد الوسطي للأسر فائدة ترجى، ولم يؤخذ التعداد السكاني المنظم قبل عام 1922، وهو تأريخ يلي الفترة التي أتحدث عنها بأكثر من خمسين عاما، خرجت خلاله المدينة عن نطاق أسوارها، وهاجر منها وإليها الكثير من العائلات، وتغيرت الخارطة الديموغرافية تغيرا كبيرا.

أيضا، من حيث التوزع السكاني، لم تخضع حمص بشكل كامل لشروط توزع السكان الذي ساد كل من حلب ودمشق، حيث تحكمت المهن والأعمال التي زاولها السكان في مناطق سكناهم، فقد اقترب التجار ومعظم العاملين معهم في سكنهم من الأسواق ليسهل عليهم الانتقال السريع والمريح إلى أماكن عملهم، وكذلك حتى يبقون على صلة بمنازلهم وعائلاتهم، في عصر اقتصرت وسائل المواصلات فيه على عربات الخيل، أو الخيول نفسها، علما أن وسيلة النقل هذه لم تستخدم للتنقل ضمن المدينة لأغراض الذهاب إلى العمل، واقتصر هذا النشاط على السير على الأقدام. اما الصناع فسكنوا قريبا من ورشهم وأنشأوا حارات كاملة، بينما انتشرت قصور الملاكين الكبار في أماكن متطرفة من المدن، غير بعيدة عن الأبواب الرئيسية لها ليسهل عليهم الوصول إلى مزارعهم والقرى التي يملكونها التي تقع بعيدة أو غير بعيدة عن المدينة، اما الفقراء فكانوا يلجؤون إلى مناطق خاصة بهم، تجنح دائما بعيدا عن سكن الأثرياء وتحاذي أسوار المدينة، وتكتظ مناطقهم على بعضها، وتتلاصق البيوت حتى يكاد المنزل يلتحم مع الذي يليه.

حمص لم تشهد هذا التوزع السكاني، بل خضعت لأحكام وتقسيمات أخرى، فكانت سيادة العائلات الكبيرة لكل حي من الأحياء هي النظام الذي شكل أسس توزع السكان فيها، فلكل واحدة من العائلات الكبيرة فيها منطقة خاصة، فالتزم بنو السباعي وهم أكبر العائلات المحلية عددا بالسكان "بحي بني السباعي" ويعرف محليا "حارة بيت السباعي"، وشاطرهم آل الدروبي هذا الحي أيضاً، في المنطقة المعروفة "بالصفصافة"، بينما سكن آل الزهراوي وآل طيارة "حي

باب تدمر"، أما عائلة الرفاعي بكافة فروعها المعروفين كالجندلي، حجو، القاضي فاختصت السكن في "حي باب الدريب" وشاطرهم هذا الحي آل حسام الدين، يعرفون حالياً بآل الحسامي، عائلة الأتاسي والحسيني سكنتا حي "باب هود". اما حي باب السباع فسكنته عائلات التركماني، الصوفي، والوفائي. وآل الجندي فسكنوا حي "الفاخورة". وكل من عائلات الطرابلسي، فركوح، وهم من أكبر العائلات المسيحية فسكنت حي "جمال الدين".

لكن هذا التوزيع لا يعني أن تقسيما طائفيا قد ألقى بظله على المدينة بشكل حاسم، ففي كل حي كانت هناك عائلات مسيحية وأخرى مسلمة تسكن متداخلة ومتجاورة في الأحياء، ففي حي باب تدمر سكن آل عبود، عريضة، مسوح، وفي الفاخورة عائلات سلوم، صباغ، جرجس كما نجد لكل من آل فركوح وآل الطرابلسي، وعطا الله، ذكر في حي بني السباعي إضافة إلى تواجد إسلامي في محلة جمال الدين كآل ادريس والحجة. كما نلاحظ تواجدا للعائلة الواحدة في حيين منفصلين كآل الأتاسي الذين سكن قسم منهم حي ظهر المغارة أيضاً. كلمة أقولها أن التقسيم السكاني لا يمكن البت النهائي به، لعدم توفر الاحصاءات المطلوبة، وما قدمته عبارة عن لمحة عامة لتوزع العائلات المتنفذة.

وإلى جانب العائلات الكبيرة والمتنفذة اندرجت عائلات أخرى أقل عدداً، لم تلعب دوراً هاماً في الشأن العام للمدينة، وكانت تلوذ بحمى العائلات الكبيرة التي اكتسبت حقا تاريخيا في إدارة عملية تنظيم الحي، فلا يجوز أن تباع قطعة أرض الا بموافقتها، وبعد معرفة الشاري، ولا يحق لأحد أبنائها ومهما كان وضعه ضمن العائلة الانتقال إلى حي آخر بقصد السكن والإقامة هناك، دون أخذ المشورة وإعلام كبير العائلة المتنفذة في الحيين، والا اعتبر هذا تعديا على حقوق العائلة المتنفذة في الحي الآخر، ولا يبنى دار الا بمعرفتهم ولا يحق لأسرة ما أن تغير موطن سكنها من حي لآخر الا بعد اتفاق كبار رجال العائلتين والتأكد من الظروف الموجبة، ويتخلل هذا الموقف ويسبق البت فيه الكثير من الوجاهات، ووقتا طويلا في الدراسة والتمحيص.

ومقابل هذا كانت مسؤولية حماية الحي وسكانه تقع على عاتق الأسر الكبيرة، ومراقبة النظام فيه، ودرء الخطر والتصدي للأعداء المغيرين والقبض على

اللصوص وتسليمهم إلى "متسلم المدينة" ليقرر العقاب الذي يستحقونه، والتصدي لكل من تسول له نفسه أحداث القلاقل ضمن الحي، أو قيام أحدهم بتصرف قد يسيء للحي وسمعته وسكانه، فكانوا يدربون أبنائهم على السلطة ويعلّمونهم طرق حفظ النظام والأمن، وكيفية التصدي للمسائل الهامه، ولهم من أبنائهم وأبناء الأسر التي تنضوي تحت جناح حمايتهم شباب تسمى "الفتوة" يتم اختيارهم ممن يحسن القتال واستخدام السلاح، غالبا الخنجر، مهمتهم التصدي لأي حدث غير عادي قد يجري، كما يتطوع عادة معظم الشبان تحت سن الخامسة والعشرين بمهمة معرفة ما يجري في الطرقات والأزقة، ومراقبة كل غريب سواء كان من الأحياء المجاورة أو البعيدة، أو غريب كليا عن المدينة والتصدي له، إن بدا لهم ما يريب في تصرفاته، كتكرار تردده على الحي دون سبب، أو السؤال عن إحدى الأسر أو أحد أبنائها والتلكؤ في تقديم تفسير واضح، أو كثرة التفاته فيما حوله، وغير ذلك من التصرفات التي لم تكن مقبولة في ذلك العصر، وتثير الكثير من الريبة والشك، في عصر كثرت اضطراباته، وفاقت الأحداث التي هزت مجتمعه كل تصور، مما تطلب استباق الأمور والتصدي للمواقف ومعالجتها وفق المفاهيم والأسس المتعارف عليها بمنطق تلك الفترة من التاريخ، ولحل مشكلة ما، كان يتم أحياناً أحداث مشكلة أخرى قد تكون أكبر من سابقتها، وكثيرا ما تتطور الأمور بشكل لا تحمد عقباه، وتتفاعل الأحداث بحيث لا ينجو منزل في الحي من عواقبها.

هذا بالنسبة للمجريات العامة والمألوفة للحياة ضمن الأحياء القديمة أما التوزع السكني، فلم يستند على أسس طبقية الا حين يصل الفرق الاجتماعي مستوى كبيرا، فقد تجاورت بيوت الفئة المترفة جداً مع بيوت الطبقة المتوسطة الدخل وشكلت فيما بينها حارات تمتعت بالخصوصية زودت بأبواب كبيرة تغلق ليلا، وبين اولائك وهؤلاء تبعثرت بيوتُ بعض الفقراء. طلبا للمزيد من الأمان. والتجول ضمن المدينة، والتحقق من مساحات مساكنها الباقية، يظهر لنا، بما لا يدع مجالا للشك، ان التوزع السكاني لم يرتبط بالوضع المادي للأسر، فليس غريبا أن نجد مسكنا بسيطا ومتواضعا يتألف من ثلاث غرف وفناء صغير يجاور دارا مؤلفة من فناءين وعدد من الغرف يتجاوز العشرة، مع زخارف وزينات مترفة، إضافة إلى الأقبية المخصصة للخدمات. فالمجتمع السوري لم يشهد خلال تاريخه

تفاوتا طبقيا حادا كالذي عاشته أوربة، بل عرفت المـدن تمازجـا أدى لظهـور اختلاط، ولو نسبـي، ضمن الترتيب الاجتماعي للمدينة الواحدة بين الطبقـات الغنية والمتوسطة الدخل.

وهذا لا يعني عدم وجود فقراء يعيشون ضمن الحد الأدنى مـن الكفـاف، معظمهم كان من صغار العمال. هؤلاء وحدهم جنحوا في سكنهم نحو أطـراف المدينة البعيدة عن الأحياء الراقية والمترفة، مقارنة مع أوضاعهم الماديـة المترديـة، تجمعهم هموم مشتركة تدفعهم لدعم التقارب القوي مع بعضهم البعض، فانتظموا في حارات صغيرة تلتصق فيها بيوتهم وأكواخهم مع بعضها. وتكثر في العـادة في هذه البيئات حالات الجنوح الأخلاقي يدفعهم إلى هذا الضغط الهائل من الفاقة التي يعانون منها، والرغبة في الهروب من واقعهم المرير، تلقي بالبعض إليها بوادر طموح نحو الثراء لم يجد له ما يكفي من الوعي الذي يمكن أن يقود إلى بر الأمـان. هـذا ويلاحظ أنه وكلما ازدادت الفاقة والفقر، كلما اقتربت بيوت الفقراء من بعضـها والتحمت بحيث تبدو وكأنها تشكل كلا واحدا يصعب فصله، ولهذا عوامل عـدة أهمها:

1- رغبتهم العفوية بالحماية والدعم الذي يمنحه لهم تلاحمهم كمجتمع واحد من الصعب اختراقه ولو صوريا.
2- رفضهم للاحتكاك المباشر بالتفاوت الاجتماعي المؤلم لهم، الذي يفصلهم عن بقية طبقات المجتمع.
3- انخفاض سعر الأراضي المعدة للبناء في مناطقهم، وجنوحها المباشر للارتفـاع إثر الابتعاد باتجاه الأحياء الأخرى.



البيت التقليدي بحمص

استفادت حمص من موقعها بالقرب من هضبة الوعر البازلتية، باستخدام هذا الحجر في بناء دورها العامة والخاصة، فهو حجر بلوري صلب ومتين ويملك خواصا عازلة أيضاً، ما يجعله مادة جيدة لأعمال البناء. ولكن لا يمكن الجزم بتاريخ بدء استخدامه في عمارة المدينة لعدة أسباب، أهمها أن المدينة لم تُدرس أثريا دراسة كافية، إذ لم تعمل بها أسبار تنقيب أثري، بقصد تتبع طبقات السكن فيها عبر التاريخ، وكل ما جرى كانت حفريات طارئه تقام إثر اكتشاف مفاجئ يلي أعمال حفر لإقامة المنشآت الحديثة، كان أهمها العمل الذي جرى خلف الجامع النوري الكبير، واسفرت نتائجه في الكشف على المدماك الأول من جدران كنيسة تعود للعصر البيزنطي مع بقايا أرضيات تابعة للبناء، وقد شيدت الجدران بحجر البازلت ذي القطع الصغير. بينما قدمت أعمال التنقيب التي جرت في منطقة باب هود - الأرض التي أقيم عليها بناء نقابة المهندسين الحديث - بقايا أسس أبنية غير واضحة لعدم العثور على أرضية تابعة لها، وجميعها بنيت بالحجر الكلسي ذو القطع

الكبير، وقد أعيد استخدامها مرة ثانية في عصور لاحقة، فضمن حجارة الأسس عثر على بقايا تيجان كورنثية الطراز وعناصر أخرى تابعة لأبنية كانت مشادة من الحجارة الكلسية الطرية، دمرت لاحقا، أدى استخدامها ثانية إلى تفتت أجزاء كثيرة منها، لكن أسلوب نحت هذه القطع يشير إلى عمارة العصر الروماني. لقد أجرى أحد الباحثين دراسة اعتمدت معطيات العلم الحديث، من الصور الفضائية وغيرها، توصل خلالها إلى أن الخروج الأول للمدينة عن نطاق التل الأثري تم في القرن الثاني ميلادي، أي إبان العصر الروماني. وما ذكرته سابقاً قد يكون الدليل على بناء المدينة في ذلك العصر بالحجارة الكلسية، وما تلاه من العصور بني بحجارة البازلت، مستفيدين من وفرها وقرب مقالعها. أما إدخال اللون الأبيض كعنصر تزين في عمارة المدينة فلا يمكن الجزم فيه، وأول ذكر له ورد في وصف ابن فضل الله العمري للمدينة لدى زيارته لحمص خلال القرن الثامن الهجري، الثالث عشر ميلادي، حين قال "والمدينة مبنية بالحجر الأسود الصغير، وبها الحجر الأبيض لكن الأكثر هو الأسود".

يكمن في هذا جمال البيت الحمصي وفرادته لدى مقارنته مع الدور القديمة في كل من دمشق، حلب، وحماة أيضاً، كانت الحجارة تقطع في مقالعها إلى قطع طويلة تحمل بعدها إلى المدينة فيتم تقطيعها ثانية للأحجام المطلوبة ويشذب سطح الوجه الخارجي، أو ينحت ليأخذ الشكل المطلوب لزخرفة البيت، وكانت محلة باب هود أكثر ما اشتهر من أماكن تجميع الحجر وتقطيعه. وإلى جانب البازلت، كعنصر رئيس في العمارة استخدم السكان الحجر الكلسي كعنصر زخرفي ومتمم في تزين واجهات بيوهم الداخلية، وقد أدى التناقض الحاد بين اللونين الأبيض والأسود إلى خلق فرص جمالية لم تتوفر لدى مثيلها من بيوت سوريا الداخلية، التي كثيرا ما تأثرت عمارهما ببعضها البعض. ففي دمشق استخدم حجر البازلت مع حجر الكلس الأبيض أيضاً، لكن الدمشقيون أضافوا له الحجر السماقي اللون أيضاً – بيت أسعد باشا العظم (صورة رقم 1) – وأعطت هذه الألوان جمالا هادئا، بينما بنيت حلب بالحجر الكلسي المائل للصفرة، ولإمتاع عين الناظر لبيوهم أكثروا من الزخرفة بالنحت على الواجهات الداخلية لمساكنهم وبرعوا في هذا، بينما كانت حماه أقرب لحمص في عمارها ولكن غلب اللون الأبيض في عمارهم،

واستخدام حجر البازلت كعنصر مساعد ليس إلا - مدماكين من الحجر الكلسي أو ثلاثة، ومدماك واحد من البازلت على واجهات بيوتهم - وهي عمارة جميلة لكنها لم تبلغ مستوى عمارة البيت الحمصي، فالحجر الكلسي في حماة يميل للون الأصفر كما أنه غير صلب، وقد عرف البناؤون في حمص هذا فاستقدموا حجارتهم من مقالع منطقة المخرم المميزة ببياض لونها وصلابتها. فقدمت حدة السواد مع نقاء البياض تناقضا لونيا جميلا يصل حد الإبهار، وهو ما كانوا يبحثون عنه، فقد تلاءم وطبيعتهم المحبة للمرح، لقد دفعهم شغفهم بالبهجة للبحث عن فرص جمالية حادة وواضحة، لا تتطلب كبير عناء في التأمل حتى تظهر للعيان، فهي واضحة وضوح مشاعر سكانها، فهنا، في هذه المدينة لا مجال أبدا للمراوغة.

هذا وقد تفنن سكان المدينة وبنّاؤوها في خلق وابتكار عناصر زخرفية تتلاءم مع ذوقهم، في بيوت الفقراء اقتصرت الزخرفة على أطر النوافذ فقط، صنجات بسيطة من حجر الكلس أحاطت النوافذ بالتناوب مع حجر البازلت، وأحيانا غاب عنها اللون الأبيض، لكنها مالت للتعقيد مع ارتفاع المستوى المادي، كذلك مع التقدم بالزمن نحو القرن العشرين، وضمن هذا السياق قدم لنا أحد البيوت الذي بني على ثلاث مراحل تعاصر ثلاث فترات تركت أثرها العميق على عمارة منازل المدينة، وسأُقدّم مثالاً هاماً وحيوياً لما عرضته سأفرد له وصف خاص نهاية هذا الفصل.

مميزات عامة للمنزل الحمصي

حافظ المنزل التقليدي في حمص على معظم عناصر البيت التقليدي في سورية، سواء لدى تخطيط بيوت الأثرياء الواسعة والمترفة، أو بيوت الطبقة الوسطى المتوسطة الحجم أو بيوت الفقراء الصغيرة، وما يتعلق بالأخيرة فقد حافظت على الفناء كعنصر أساسي من عناصر البناء، تحيطه غرفتين أو ثلاث غرف سُقف معظمها بعقود حجرية تعلوها طبقة من التربة الناعمة ترص سنويا بأداة حجرية اسطوانية الشكل وثقيلة الوزن، لمنع تسرب مياه الأمطار إلى الداخل شتاء، ويلاحظ تزويد الجزء العلوي من جدران المنزل السميكة الحجم بقمريات مهمتها تحريك الهواء الحار والساكن داخل الغرف ثم دفعه باتجاه الفناء في فصل الصيف، بينما

تغلق شتاء من الداخل بمصراع خشبـــي لحصر الهواء الـــدافئ داخـــل الغـــرف، وتراجعت فيها جميع عناصر التزيين الأخرى.

لقد اعتنى كافة الدارسين للمنـــزل التقليدي بالقصور الكبيرة، وذكروا أنهـــا تألفت من جناحين، أطلق على الجناح المخصص لسكن العائلة (الحراملك) والجناح المخصص لاستخدام الرجال (السلاملك)، لكن هذا النوع من المنـــازل لم يكـــن شائعا لدى الجميع، بل اقتصر على الخاصة من الناس، ففـــي حمـــص لا يتجـــاوز وجودها عدد الأصابع، كان أشهرها قصر الباشا الحسيني (شكل رقم 1)، ومنـــزل عبد الله فركوح، أيضاً منـــزل سليمان فركوح. فالأول شغل ثلاث أجنحة بإضافة جامع واسع له، ثم أهمل من قبل ورثته وأجر أكبر أجنحته كمعمل لإنتاج نوع من الحلويات الشائعة في سورية، بينما دخل البيت الثاني ضمن مشروع لإقامة مطعـــم وفندق، ثم توقف العمل لخلاف بين الشركاء، الثالث أعيد إحياؤه وافتتح به مطعم كبير (صورة رقم 2).

لقد انتشر على نطاق واسع في المدينة المنـــزل المؤلف مـــن جنـــاح واحـــد يخصص لسكن العائلة، وله غرفة تخصص لاستقبال الرجال تكون غالبا قريبة مـــن المدخل الرئيس للمنـــزل، واتبعت هذه البيوت مخططا متشـــابها إلى حـــد كـــبير. فالمنـــزل يتم الدخول إليه عبر مدخل منخفض سقف بعقد طويل يفضي إلى فنـــاء تحيطه عدد من الغرف وينفتح عليه إيوان صغير سقفه مرتفع، وقد خلـــت هـــذه المنازل بمعظمها من المطبخ بمفهومه المعاصر، فكانت تخصص إحدى الغرف المتطرفة لتؤدي هذه المهمة، وله مرحاض واحد لكافة أفراد العائلة، كما خلت من وجـــود الحمام - شاهدت في إحدى جولاتي على المدينة منـــزل واحد فيه حمـــام صـــغير مؤلف من قسمي الدافئ والحار، ويعود لإحدى أسر عائلة الدروبـــي - كمـــا لم تعرف المدينة نظام الصرف الصحي المعاصر، بل كانت المياه المالحة تحول إلى حفـــر صحية تعد لهذا الغرض، أو تحول إلى أقبية تعود بتاريخها إلى عهود قديمة، بالواقع لم تكن هذه الأقبية سوى مدافن رومانية يعرفها سكان المدينة، والكلمة الشائعة عـــن تحويل الصرف الصحي إلى الروماني كما يردد البعض في المدينة لها سندها التاريخي، هذا من حيث المخطط العام (الشكل رقم 2). ومن حيث التفاصـــيل فـــأول مـــا يلاحظ في البيوت التقليدية وجود القبو فيها، وأحيانا يزود المنـــزل بعـــدة أقبيـــة

ينـــزل إليها عبر درج حجري في فناء المنـــزل، تبنى الأقبية تحت مســـتوى أرض الفناء غالبا، ما يجعل جدرالها بعيدة عن أشعة الشمس المباشرة صيفا، وكذلك عن العوامل الجوية الخارجية المسببة للبرودة شتاء. ثم تسقف بعقود متقاطعة من الحجر الغشيم يغمس بملاط من الطين الممزوج بالكلس، فيساعد هذا على احتفاظ المكان بدرجة حرارة منخفضة صيفا، ودافئة شتاء، ولا تقل سماكة الجدران عن (40 سم) بل تزيد أحيانا، هذه الأقبية بنيت كمخازن للغلال، في زمن كانت الناس تلجأ فيه لتخزين المؤن لعدم توفرها في كافة فصول السنة، ونظرا لثبات درجـــات الحـــرارة طيلة أيام السنة فيه أصبح القبو مكانا مثاليا للتخزين. انحرفت في جزء منـــها عـــن وظيفتها الأصلية، وأصبحت جزءاً مهما من حركة القاطنين في المنـــزل، المســـماة "البداوة"، حين أخذ سكان المنـــزل يقصدولها للراحة هربا من هجير الصـــيف في ساعات الذروة الحرارية، وأدى هذا لاحقاً إلى تعدد غرف الأقبية في البيت الواحد وتنوع استخدامها، فقد خصص جزء منها أو غرفة قبو واحدة للتخزين، بينما فرش الآخر بفرش بسيط مؤلف من مقاعد خشبية طويلة ترتفع عن مستوى الرطوبـــة في الأرضية توضع عليها فرش ومساند بسيطة للجلوس أو النوم أثنـــاء القيلولـــة، في الغالب يكون القبوين متصلين مع بعضهما فيدخل للآخر عـــبر الأول، وأحيانـــا يكونان منفصلين لكل منهما درجه الخاص ومدخلـــه، وفـــق تصـــميم المنـــــزل واتساعه. ثم لم يلبث بعض السكان أن زادوا عددها، ورفعوا مســـتوى أســـقفها ففتحوا لها نوافذ تطل على الفناء للاستفادة القصوى منها (صورة رقم 3).

تبنى الغرف المعدة للسكن فوق الأقبية كدور ثان، فترتفع عن مســـتوى أرض الفناء وتسوى أمام الغرف شرفة واسعة تشرف على الفناء (الصورة السابقة)، بقية غرف المنـــزل تبنى على مستوى الأرض بارتفاع درجة واحدة فقط، تتقدم غرف السكن من الداخل عتبة صغيرة تكسى أرضيتها بالرخـــام، أو بـــبلاط يتناســـب وإكساء أرضية الغرفة (صورة رقم 4)، وأحيانا بقطع مربعة من الآجر الأحمر القاتم، تليها درجة ترتفع بين (25 و30 سم)، ولهذه العتبة أهمية خاصة، إذ كانت تستخدم كحمام سريع للعائلة، ثم تفتح في الجدار المواجه للفناء عدد من النوافذ لاســـتقبال أشعة الشمس والهواء النظيف، وفي الجزء العلوي من الجدار تفتح بعض الكـــوى – القمريات – مهمتها دفع الهواء الساخن صيفا خارج الغرفة. كما تفتح عدد مـــن

القمريات على الجدار المطل على الطريق لتسريع حركة الهواء. كما تزوَّد الجدران لدى انشائها بكوى صماء تكسى بالخشب يطلق عليها "الكتبيات" للصغيرة منها، و"اليوك" للكبيرة، تحفظ الحاجيات داخلها بحيث تكون بعيدة عن أنظار الزائرين، أما الأخشاب المزخرفة الواصلة بين هذه الخزائن فتكون على مستوى الجدار ولا تتعدى وظيفتها خدمة جمال الغرفة، وتشمل هذه الهندسة الداخلية بيوت الأغنياء والفقراء على السواء، والفرق لا يتعدى سوى وجود الزخارف والنقوش المكلفة أو عدم وجودها ونوع الخشب المستخدم في الاكساء.

الإيوان

يشرف الإيوان على الفناء إشرافا كاملا، ولا يخلو منزل تقليدي منه، باستثناء بيوت الفقراء التي خلت منه، فلم يدخل ضمن هندسة بيوتها التي تلبي حاجة قاطنيها لمأوى يلوذون إليه ليس أكثر.

والإيوان حيز من البناء مغلق من ثلاث جهات أما الثالثة فتفتح على الفناء بقوس كبيرة تصل قمته حتى مستوى السقف وتكون عادة قمة القوس مدببة، وحواف واجهته حجر يصقل بعناية وقد يزين طرفه أحياناً ببعض الحجارة الكلسية، ونظرا لكون مدينة حمص تعاني - كما أسلفت - من شدة التيارات الهوائية معظم أيام السنة، فنلاحظ فيها تبدل مكان الإيوان عنه في المدن السورية الأخرى، فهذا العنصر المعماري يتوسط احدى الواجهات ويحدد واجهته قوس واسع، بينما يشيد في حمص على طرف جدار إحدى الواجهات دون تحديد للجهة المطلوبة، وتضيق فتحة القوس بحيث يستقبل كماً أقل من الهواء المتدفق نحوه، وبالتالي يتضاءل الدور الاجتماعي الذي يلعبه فيقتصر على استخدام القاطنين في المنزل دون زوارهم الا في حالات قليلة وخاصة (صورة رقم 5). وهذا يشمل البيوت المشيدة قبل النصف الأخير من القرن التاسع عشر، فقد التزمت عمارة الحقب القديمة بكل ما يضمن لها راحتها، لكن دخول الفكر الحداثي للعمارة دفع السكان لنبذ بعض تقاليد عمارتهم التقليدية، واقتباس تقاليد العمارة الدمشقية والحلبية حيث يتوسط الإيوان أحد الجدران وتتسع مساحته حتى يحاكي مساحة الغرف المجاورة له (صورة رقم 6).

الفناء

هو مساحة مكشوفة من الأرض تتوسط المنـــزل التقليدي، وتشرف عليـــه كافة الغرف، تتناسب مساحته مع مساحة البناء ضمن حسابات يعرفها أصحاب المهنة، وتكسى أرضه بالحجر الأسود والأبيض ليتناسب مع تشـــكيل واجهـــات المنـــزل (صورة رقم 7)، وتترك مساحة تزرع بها مختلف أنواع الأشجار والشتول المزهرة في حمص، وشملت العناية زراعة الكرمة من الشجر وعطـــر الليـــل مـــن الأزهار. وللفناء مهمة إضافة الرطوبة للأجواء المحيطة فيه، وخلق جو من الراحة النفسية يسعى لها الإنسان، بكلمة أشمل، يعتبر فردوس المنـــزل التقليدي وجنّتـــه التي أقامها ساكنوه على أرضه الصغيرة، عالم مصغر يختصر تاريخ من المعـــارف والمعتقدات الروحية المتداولة رافقت الإنسان منذ خروجه من البادية، محدِّثة إيـــاه عن الجنة والفردوس المبتغى، حين تتحدث الأعمال الصالحة عن صاحبها فيكافئه خالقه بجنة من الشجر والزهر والثمار اليانعة والينابيع الجارية يستريح فيها بعـــد أهوال الحياة ومشقاتها. لكن هنا، في الحياة الدنيا، حيث الشقاء والكد بالعمـــل طلبا للرزق، والسعي المرهق للنفس، فكل لقمة يطعمها لأولاده ومن هم تحـــت رعايته تساق إليه مغمسة بالعرق والجهد، فما أحوجه لجنَّة مصغرة يكـــافئ بهـــا نفسه إثر عناء اليوم، وها قد اوجدها في بيته، ساحة مـــن الشـــجر والريـــاحين والورود الجميلة، بحرة ماء في الوسط، أو بئر يرطب بمائه المكان، أريكة صـــغيرة وبضع كراسي يمضي أهل المنـــزل ليالي السمر عليها، هنا يتراجع تعب النـــهار وإرهاصاته خلف الجميع، وتبقى لمة العائلة مسكونه برائحة الأشـــجار وعبـــق الورود والرياحين، إنه الإرتقاء الروحي إلى الجنة المفترضة، بعيدا عـــن جحـــيم الحياة، وهمّ التفكير بالموت.

ما من زائر للمنـــزل التقليدي، ولو كان عابرا، الا وسحرته أجواء الفنـــاء، فوقف للحظات يتأمل ما تراه عينه بما يشبه الصدمة لكن الجميلة منها، فالجمال في أعلى مراحله يكون صادما حتى إيقاظ الروح. ولبلوغ هذا الفردوس على المـــرء أن يدخل من الباب الرئيس للمنـــزل عبر ممر معتم سُقف بعقد طولي يشبه النفق، هو النقلة النوعية بين العالم الخارجي العام الذي يتشارك به الناس الأشياء، وبين العـــالم الخاص الذي يحضن الأسرة ويقيها شر التطفل، فالنفق ينفتح في نهايته ليس علـــى

الفناء وحده ليظهر الفردوس الغير متوقع بل أيضاً على العالم الروحي للإنسان القاطن فيه، إنه سر المنزل الجميل، ونبض الحياة فيه (صورة رقم 8).

الواجهات الداخلية

هي الإطار الجميل الذي أحاط بفردوس الفناء فأتم جماله، وكما تنتقى أطر اللوحات بعناية كذلك جاءت الجدران الداخلية، لوحات متناسقة، لكنها غير متطابقة تؤطر حديقة من زهور وأشجار وشتول متنوعة وبحرة ماء، فتعيد بناء كل شيء داخل المنزل، وعلى هذه الواجهات يكمن الذوق الخاص للإنسان وتفرده.

بدأ تزيين الواجهات الداخلية بإطار بسيط من الحجارة البازلتية الموشى ببعض المداميك البيضاء الصغيرة تحيط بالنوافذ المطلة على الفناء، ما لبث أن تطور فظهرت أشكال جديدة تمنح الجدران المزيد من الأناقة المطلوبة، فظهرت العناية بأطر القمريات فاستبدلت أطرها البازلتية بأخرى من حجر الكلس (صورة رقم 9)، ومع التقدم بالزمن تطورت إلى زخارف بسيطة استمرت في تطورها وبدأ البناؤون في ابتكار أنماط جديدة، وعناصر فنية تتلاءم والذوق العام، فعمارة مدينة حمص مدنية بامتياز، وقد رغب السكان بتزيين البيوت التي يعمروها، فوجدوا في بعض عناصر زخرفة المباني الإسلامية ضالتهم فاقتبسوا منها بعض الجزئيات كالأبلق، الصنجات المزررة، زخرفة القمريات، والأقواس المشيدة بالحجر الأبيض والأسود، واختصوا بابتكار الحقول الشطرنجية، يزينون بها الجزء الأعلى من الواجهات الداخلية، وبينما احتفظ الفقراء بتوشية أطر النوافذ فقط، بل تخلوا عنها أحياناً كثيرة خفضا للنفقات، بينما مالت الزخرفة في بيوت الأثرياء نحو الإسراف والمزيد من التعقيد، فظهرت زخرفة الطنف الأعلى من الجدار بدوائر من الصنجات المزررة (صورة رقم 10) استخدمت في بعضها أحياناً الواح الرخام الأبيض - محلي المصدر - فهذا النوع من الزخرفة تطلّب صنع ألواح رقيقة تُنحت أطرافها وتُسوّى لتأخذ الشكل المطلوب، ومهما بلغت صلابة الحجر الكلسي الا أن قوامه يظل طريا ولا يمكن تشكيل ألواح رقيقة منه دون أن تتعرض للكسر ما يعيق العمل ويؤخره، فشكّل حجر الرخام بديلا مناسبا لا يتعارض لونه مع حجر الكلس، وان ظل استخدامه محدودا مقارنة مع شيوع استخدام الأخير، كما ظهرت الزخرفة بطراز الأبلق على

القسم الأسفل من الجدار - مدماك أسود ثم آخر لونه أبيض وهكذا - ما لبث أن توسع ليشمل النوافذ أيضاً، تعلوها مساحة بازلتية ثم زخرفة الطنف الأعلى، وبهذا تكتمل اللوحة المراد تشكيلها، ويصبح الجدار قطعة فريدة من اكتمال الجمال (صورة رقم 11).

وفي أحيان أخرى أخذت الصنجات المحيطة بالنوافذ والأبواب شكلا دائريا لمنح المنزل خصوصية لم تتوفر في البيوت المماثلة أما القمريات فلم تعد بسيطة بل بدأت تظهر أشكال نحتت بعناية تؤطر الكوى ما أتم الصورة الجميلة للواجهة.

القمريات

لا يمكن الحديث عن الواجهات الداخلية دون التطرق لهذا العنصر المعماري الهام في هندسة البيت التقليدي، وأيضاً كونها تحولت لتصبح أحد عناصر الزخرفة الهامة في الواجهات الداخلية للمنازل.

تفتح عادة في الغرف أعلى الجدار المطل على الفناء، وكذلك على الجدار المطل بواجهته الخارجية على الطريق أو الزقاق المجاور له، لتضمن تحريك جيد للهواء، فقد وجدت أولا ضمن وظيفة معماريه قوامها تحريك الهواء ضمن الغرفة، ومن ثم طرده خارجا نحو الفناء في فصل الصيف لمنع احتباس الحرارة في الداخل، بينما تغلق شتاء لحفظ الدف، ويعمل لها داخل الغرفة مصراع خشبي يدخل الزجاج كعنصر متمم في صناعته أحياناً وقد تدخل المرايا أو الزجاج الملون في كسوتها. ولما كانت القمريات تشرف على الفناء أصبحت أيضاً جزء هام من زخرفة الواجهة، في البداية أحيطت فتحاتها بحجارة كلسية لها شكل مستطيل، ما لبث أن تطور ودخل عنصر النحت إليه فزينت قوسها بحجارة نحتت بعناية، وكانت الكوة تفصل أحياناً بقوسين متجاورين وسطهما عمود صغير، ثم دخلت الحجارة المنحوتة بعناية وتعقيد فائق، فظهرت حجارة نحت أعلاها بنقوش نافرة نباتية أو هندسية، وأحيانا تألفت من كوتين متلاصقتين فصلتا بعمود صغير يسمى السوير، ولدى التدقيق في بعضها نجد أن لون الحجارة التي شغلت منها وكذلك نوع الحجارة يختلف اختلافا كبيرا عن التي استخدمت في عمارة الواجهة، بل هي أقرب لنوع الحجارة التي استخدمها أهل حلب في عمارة بيوتهم، ولما كانت حمص

في فترة ازدهارها تستقدم المهرة من الصناع من مناطق مختلفة، فلا غرابة أن يتم استيراد هذه القطع الجميلة من حلب خاصة أن مثيلاتها منتشرة في بيوت حلب، كأسلوب النحت ومواضيع الزخرفة، كذلك عمق النحت - يصل أحياناً إلى ثمان أو عشرة سنتيمترات - بحيث يشكل ما يشبه لوحة من الدانتيل.

المصطبة

عنصر معماري آخر دخل في تزيين الواجهات المطلة على الفناء، وتألف من محراب صغير يرتفع عن مستوى الأرض ضمن الجدار أعلاه قوس وقاعدته مسطحة، أما وظيفة المصطبة فهي وضع قنديل الإنارة بعيداً عن التيارات الهوائية، وكذلك بعض الحاجيات الضرورية كشربة الماء...، لكنها حازت على الكثير من العناية لدى إنشائها، فصنع أعلاها من أقواس متنوعة، مفصصة أو مسننة، وزينت واجهتها بألواح الرخام مع ألواح البازلت يتفنن البناء في تشكيلها تصل لاستخدام الرخام المجزع المتعدد الألوان (صورة رقم 13 و14 و15).

الواجهات الخارجية

غالبا كانت بازلتية صماء، تتخللها بعض القمريات البسيطة والخالية من الزخرفة، كوى مستطيلة تؤطَّر بحجر البازلت، خلافاً لتلك المطلة على فناء الدار، وتتتالى الأبواب الخارجية لدور السكن فتشكل عنصر الزخرفة الوحيد في هذا السياق الصامت والرصين، ما يغني المكان، ويبعد عنه شبح الرتابة الذي قد يوحي به الامتداد الطويل للجدران القاتمة اللون على طول الشارع أو الزقاق.

لدى الفقراء تعلو الأبوابَ الخارجية ساكف طويلة من البازلت ترتكز على دعائم من بازلت لم تشذب بعناية، لكننا أيضاً نجد أبوابا تعلوها قوسا دائرية حجارتها هذبت بعناية وصقل وجهها، ويصنع مصراع الباب من الخشب الثقيل تضاف له زخارف منمقة بسيطة، غالبا نباتية، وأحيانا يغلف خشب الأبواب بألواح التوتياء ثم تزين بمسامير حديدية للتثبيت توزع بعناية، وتطلى هذه الأبواب، الخشبية منها أو المغلفة بالتوتياء بألوان قوية قاتمة قليلاً من الأزرق والبني والأخضر، ثم تضاف مطرقة من الحديد (صورة رقم 16).

أما بيوت الطبقة الوسطى والثرية فقد جهد أصحابها بنقل أجواء المنزل الداخلية للخارج، بإضافة بعض الزخارف البسيطة والأنيقة على مداخل بيوتهم دون الخروج عن الأجواء الرصينة للمدينة، أقواس دائرية تعلو الباب الخارجي، صنجات بسيطة تعاقب بها حجر البازلت مع الحجر الكلسي، وأحيانا لكن المثال الأجمل والأكثر اكتمالا هي الباب العائدة لمنزل آل الجندي، هذه الباب زينت بعدد من الأقواس المدببة مشغولة من الحجر الكلسي وسطها قوس من حجر البازلت، تشكل فيما بينها محراب يحيط بباب المنزل تعلوه قوسا من صنجات مزررة ثم حجر تأريخ البناء، وفي الأسفل على جانبي الباب مكسلتين تسمحان باستراحة الزوار المسنين ريثما يفتح الباب، دخل البازلت وحجر الكلس في عمارتهما، فظهرت البوابة مثال جميل لامتزاج الذوق الغربي للعمارة – الأقواس المدببة المتعاقبة – مع الذوق المحلي الذي تبنى على مدى عقود نتاج العمارة الإسلامية – الصنجات المزررة والمكسلتين – (صورة رقم 17).

وقد شغلت صلفات الأبواب من الخشب المتين وزين الخشب بنقوش نباتية كثيفة وجميلة شغلت بعناية فائقة. وكما نرى أحياناً ظهور للباب المزدوج المسمى محليا "باب خوخة" ويتألف من باب خشبي كبير ومرتفع وسطه بـاب صغير يستخدم باستمرار من قبل ساكني المنزل – منزل آل الجندي السابق الذكر، بينما تفتح الباب الكبيرة في المناسبات الخاصة، كمناسبات الفرح ولدى حصول مصائب الحزن أيضاً. وكذلك لإدخال الحمولة الكبيرة من المؤن مع حيوانات التحميل (الصورة السابقة)، ثم تضاف للأبواب مطرقة جميلة من النحاس الأصفر أو الأحمر بعضها كان يستورد من خارج المدينة ولا يصنع محليا.

الأسقف

تُظهر الصور التي التقطها الرحالة المستشرقون لحمص بداية القرن التاسع عشر، بيوت المدينة وقد سقفت أسطحها بطبقة من اللِبن، لكن هذا لا يقدم دليلا قاطعا على كافة بيوت المدينة، فالصورة تظهر الأبنية السكنية الواقعة إلى الشمال من القلعة والمعروفة بحي التركمان، وهو أحد الأحياء الفقيرة فيها، ويبدو هذا جليا للعيان، فالبيوت صغيرة ومتلاصقة، بل تكاد تكون متلاحمة مع بعضها البعض، ولا

يشير شكلها لوجود عناصر مميزة كان البيت الحمصي يعتز بها (صورة رقم 18). ودراسة أبنية حمص القائمة - إلى حين قريب - والمؤرخة حتى القرن العشرين تشير إلى أربع أنماط من التسقيف الخارجي للبيوت.

العقد

تتميز البيوت ذات الأسقف المعقودة بجدرانها السميكة، ونوافذها الواطئة والعميقة داخل الجدار. يبنى العقد بحجارة بازلتية مقطعة ولكن غير مشذبه تربط فيما بينها بمونة من طين وكلس وبعض الحصى الصغير جدا، وتسند العقود المتصالبة - المتقاطعة - على دعائم قوية من الحجر ليتسنى لها حمل الثقل فوقها، وعلى سطح البناء تضاف كمية من اللِبن - الطين الممزوج بالقش الناعم - تجدد كل عام قبل فصل الشتاء. في الداخل تكسى العقود إن كانت مخصصة للسكن بطينة من الكلس والقنب ثم تلون بالأبيض، أو بألوان زاهية كالأزرق والأخضر الفاتح، أو الزهري. واستخدم العقد لدى بيوت الفقراء والأغنياء على السواء كطراز سائد في التسقيف، ساعدت جدرانه السميكة في تشكيل الفراغ المطلوب للخزائن الجدارية، أحد عناصر البيت التقليدي الهامة.

اللِبن

بعد الانتهاء من عمارة هيكل المنزل بالحجارة إلى الارتفاع المطلوب يتم سقف المنزل بربد من الأخشاب المسطحة، عادة يستخدم خشب الزان أو القطران لهذه العملية لصلابته وقدرته على مقاومة الحشرات الضارة كالسوس ودودة الخشب، ثم توضع فوقه ألواح رقيقة من الخشب أيضاً بسماكة (2.5) سم، ثم طبقة سميكة من اللِبن، وتزين الأسقف من الداخل برسوم مختلفة ألوانها زاهية أو بطلاء ملون (صورة رقم 19). أما الفقراء ومتوسطي الدخل فكانوا يستخدمون جذوع الحور ثم حصيرة من عيدان القصب تشبك ببعضها البعض بعناية ثم توضع بشكل متصالب فوق جذوع الخشب، وأخيرا طبقة من اللِبن، وقد نجد هذه الطريقة في سقف المنازل لدى بيوت الأثرياء أيضاً، ولكن في القسم المخصص للمنافع التي لم تكن تولى العناية التي حصلت عليها في عصرنا الحديث.

كما دخل اللِبن بنسب قليلة جداً في العمارة كمادة بناء متممة لبعض أجزاء المنزل، كالسور الخارجي لبيوت الطبقة الفقيرة، أو لدى إضافة غرفة ملحقة في الأعلى، لا كنتيجة لزيادة عدد القاطنين فقط بل نتيجة لدخول طرز أخرى من العمارة متأثرة بالعمارة الأوربية الوافدة، فاستخدم بعض السكان اللِبن في عمارة غرفة تضاف للمنزل وتسقف بالقرميد، ونلاحظ وجوده في الجدران الخارجية للبناء يدخل فيها الخشب كمادة داعمة للجدران، فترصف أوتاده على شكل حرف (x) ثم يصنع قالب من الخشب ويملأ باللِبن، يترك حتى يجف ثم ينزع القالب ويكسى بطينة، ودخل هذا النمط لاحقاً إلى المدينة.

لقد استخدم التسقيف باللِبن للبيوت التي تعمَّر بالعقود، وكذلك ذات الجدران المستقيمة، هذا وتكون جدران المنزل المبني بحجر البازلت أقل سماكة من جدران العقود، ونوافذها أكثر اتساعا بحيث تؤمّن كماً أكبر من الضوء، كما وتتيح الإمكانية لإضافة الزخارف والزينات للمنزل بسهولة ويسر كبيرين، سواء داخل البناء أو على الواجهات المطلة على الفناء.

التوتياء

استخدمت هذه المادة في إكساء واجهات المشربيات وبعض غرف الدور الثاني من الأبنية (صورة رقم 20). أما على الأسقف فكان استخدامها في البدء للأسقف المسطحة قليل نسبيا، وما لبث أن اكتشفت فائدته فشاع استخدامه، وإن اقتصر على بيوت الفقراء، لدرء تآكل الطين على سطوحهم، فلا يحتاجون لتجديده كل عام. وقد ظهر استعماله في سقف بيوت الأثرياء ذات الأسطح الجملونية - شكل هرمي - وهذا الطراز من التسقيف دخل المدينة لاحقاً مع دخول الطراز الأوربي للعمارة فيها، فالجملون طراز أوربي بامتياز دعت إليه هناك الحاجة القصوى نتيجة للمناخ القاسي الذي تعاني منه أوربة شتاء، والمتسم بغزارة هطل الثلوج، ولم يدخل بلادنا للحاجة وإنما سعياً وراء التجديد وإضافة منظر جميل للبناء، وطريقة إنشائه تشبه إلى حد كبير طريقة بناء الأسطح المكسوة بالآجر، مع فارق واحد هو وضع ألواح التوتياء بدلاً من قطع الآجر فوق الهيكل الخشبي، ثم تثبيتها بمسامير تصنع خصيصا لهذه الغاية.

كما استخدم كإطار عازل يحيط بالهيكل الخشبي من الخارج لأسقف الآجر لحمايتها (صورة رقم 21).

الآجر

دخل الآجر - القرميد باللغة المحلية - كمادة في سقف المنازل مع وصول التأثير الأوروبي للعمارة فيها، وقد ساهمت عدة عوامل في إدخال هذا الطراز من العمارة إلى بلدنا، كان منها إيفاد الطلاب للدراسة في أوربة، وسفر التجار إلى استانبول، وكذلك سكن القناصل الأجانب في بيروت وحلب ودمشق، جميعها ساهمت في وصول هذه التأثيرات إلينا، وطبعاً نضيف لها الأفكار التنويرية التي حمل شعلتها عدد من المفكرين السوريين بداية القرن التاسع عشر الذين مهدت أفكارهم الطريق لتقبُّل المجتمع الأفكار الوافدة إليه كان للعمارة نصيب وافر منها. وهكذا بدأ السكان بنقل هذا الطراز بشيء من التحفظ في البداية، ثم بانفتاح كبير بعد أن تيقنوا أنه لا يتعارض مع عمارة البيت التقليدي الذي ألفوه و لم يفكروا بالخروج عنه، فالآجر مادة بطيئة في نقل الحرارة والبرودة أيضاً، وبهذا فهم في مأمن من حرارة الصيف القائظ، وكذلك برد الشتاء القاسي، وفيما يتعلق بالخصوصية الفائقة للمنزل وعدم ظهور المرأة للخارج أثناء حركتها المعتادة ضمن بيتها، فقد سبقتها أفكار تنويرية وصلت حتى لدعوة المرأة للعمل.

وطريقة إنشائه تعتمد سقف المنزل بألواح الخشب السميك تفصلها عن بعضها مسافة عشرين إلى خمسة وعشرين سنتيمترا، وفوقها ألواح متلاصقة من الخشب المسطح، ثم تحاط من الداخل بإطار من الخشب يمسك أخشاب السقف مع جدران الغرف ويكون أحياناً الطرف السفلي لهذا الإطار مزركشا طلبا للجمال، ثم يضاف هيكل خشبي على كامل سطح البناء على شكل سنام الجمل "جملون"، ترصف عليها قطع الآجر وتشبك بأخشاب الهيكل بعناية فلا تتساقط مع هبوب الرياح القوية، ولا جراء هطول الأمطار. وفي النهاية تلون من الداخل بألوان جميلة، أوتضاف الرسوم الجميلة لتزيين الأسقف كما اعتاد السكان في منازلهم ذات الطراز المحلي. هذا وقد أستخدم خشب القطران أو الزان لهذه الغاية، أما الآجر فكان يستورد من فرنسا، ونظرا لكون هذه المواد مكلفة جداً اقتصرت فقط على بيوت

الموسرين وقليل من أبناء الطبقة المتوسطة الذين سمح لهم وضعهم الاقتصادي بالإنفاق الجيد على عمارة بيوتهم (الصورة في بداية الفصل).

الاكساء الداخلي

أستخدم الخشب لكسوة النوافذ والأبواب والخزائن الجدارية، والرخام والآجر لكسوة الأرضيات وأعمال التزيين، ثم دخل البلاط الحديث في إكساء الأرضيات مع دخول الطراز الأوربي إلى المدينة نهاية القرن التاسع عشر، وكان البلاط يستورد من إيطاليا من قبل تجار في طرابلس وبيروت على الساحل الغربي.

الأخشاب

لم يقتصر استخدام الخشب على إكساء النوافذ والأبواب في البيت التقليدي، بل كان عنصرا هاما في هندسة غرف المسكن كل على حدى، إضافة لاستخدامه كعنصر زينة وجمال – ديكور –.

كانت الخزائن الجدارية واحدة من عناصر عمارة البيوت، يجري التحضير لها أثناء عملية البناء، فتعد الفراغات المسمطة وتجهز مع جدران الغرف التي تميزت بسماكتها، وتسمى الصغيرة منها الكتبية وتتضمن الغرفة الواحدة عدد من الكتبيات المغلقة، أو المفتوحة وتزود هذه برفوف توضع عليها أدوات الزينة الثمينة بقصد العرض، أما المغلقة فتحفظ بها الحاجيات الصغيرة التي يراد إخفاؤها عن الأعين، إضافة إلى خزانة كبيرة تسمى اليوك وتخصص لحفظ فرش النوم والأغطية في غرف الاستخدام الدائم، أو البياضات في غرف النوم المفروشة بالأثاث، وقد تزود هذه بأدراج في القسم السفلي، وتكسى الخزائن بالأخشاب على شكل رفوف في الداخل، وتغلق بأبواب من الخشب المحفور كثيرا ما دخلت المرايا والزجاج كخلفية جميلة للأخشاب المنمقة، وأحيانا – وهي قليلة – ألواح من الخشب الرقيق يلصق فوقها الخشب المشغول، وكان النجارون يتفننون في تشكيل زخارفهم، فهي وإن اقتصر معظمها على المواضيع النباتية، إلا أن اسلوب نقشها وكثافته اختلفا من منزل لآخر، ولإضفاء المزيد من الجمال على الغرف عمد النجارون إلى وضع وصلات من الخشب تربط الكتبيات واليوك مع بعضها بحيث

تملأ الزخارف الخشبية كامل الجدران، وصولا إلى النوافذ التي تؤطر مع الكتبيات بطراز واحد، وإن وجد اختلاف فيكون باستخدام الزجاج الملون أعلى النوافذ (صورة رقم 22 و23 و24).

اما الأبواب فكانت تؤطَّر من الداخل بأقواس مشابهة للنوافذ والكتبيات في زخارفها، بينما يخلو مصراعا الباب من الزخرفة على الجانب الداخلي من الغرف، بينما يزين الوجه المطل على الفناء بنقوش كثيفة ونافرة معظمها نباتية، وغالبا تتناسب زخارفها والواجهات الحجرية المحيطة فيها، ثم تطلى بألوان قوية كالأخضر والأزرق لحمايتها من العوامل الطبيعية المعرضة لها، وكذلك لإضفاء المزيد من البهجة على المكان (صورة رقم 25 و26).

ولتأدية هذه الأعمال بمهارة كان يتم احضار عمال مهرة من طرابلس على الساحل، فقد اشتهر هؤلاء ببراعتهم في نقش الخشب وحفره، وكذلك بذوقهم الرفيع بابتكار أنماط جديدة من الزخرفة، يأتون مع كامل أدواتهم ويقيمون في المنزل الذي يعملون به لحين انتهاء أعمالهم.

الزجاج

أُستخدم الزجاج بأنواعه، الشفاف والملون وكذلك المرايا في كسوة الأعمال الخشبية، فالنوافذ التي تدخلها الشمس أغلقت بزجاج شفاف، بينما أغلقت أقواس النوافذ في الأعلى بزجاج ملون، فينتشر كمٌّ من الألوان الخلابة داخل الغرفة لدى مرور أشعة الشمس عبرها، واستخدم على شكل ألواح مثلثة أو مستطيلة كخلفية للخشب، ولم يستخدم الزجاج المعشق بطرق التنفيذ المعقدة الخاصة به والمشهورة، بينما استخدمت المرايا لإغلاق الخزائن الجدارية بحيث تعطي الغرفة نوراً إضافياً، وتمنح الغرفة المزيد من الأبهة والفخامة، إلى جانب الغاية الأساسية من استخدامها وهي حجب رؤية ما بداخل الخزانة حرصا على خصوصية القاطنين في المنزل (صورة رقم 27).

الرخام

تنوع استخدام الرخام في البيوت التقليدية، وإن اندرج معظمها ضمن الاكساء، الا أن أعمال التزيين حصلت على حصة كبيرة من استخدام هذا الحجر

الجميل، سواء المستورد منه أم المحلي المنشأ، وإكساء الأرضيات بالرخام كان شائعا جداً سواء في أرض الفناء يستخدم بالتناوب مع البازلت ضمن تشكيل شطرنجي، وأحينا ضمن تشكيلات هندسية تضيف الفخامة إلى الجمال (صورة رقم 9 و10 و11)، وفي صنع بحرة الماء والنوفرة – استخدمت الأنواع المستوردة من النوافير على نطاق واسع، والمصنوعة محليا على نطاق محدود (صورة رقم 8 و3) –. وكذلك في إكساء أرضيات غرف الاستقبال حيث يحرص صاحب المنزل على منحها الفخامة المطلوبة لإظهار ترف منزله، وهنا استخدم مع الرخام نوع آخر من الحجر الأسود القاتم كفواصل بين المربعات البيضاء، لإضافة المزيد من الجمال ولخلق تشكيلات متنوعة تلفت الانتباه وتميز المنزل، وجميعها استخدم فيها الرخام المستورد من إيطاليا، رغبة في نقاء حجارته، وصفاء لونها. وكان يصل مقطعا بحجم (60×60)سم وسماكة (6 أو 8) سم (صورة رقم 28).

أما في أعمال التزيين فدخل في صنع الصنجات المزررة والبسيطة أيضاً (صورة رقم 9 و10)، كما أسلفت، لدى تزيين الواجهات المطلة على الفناء، وكان يفضل الرخام المحلي في معظم الأحيان رغبة في تقطيعه وفق التشكيل المطلوب لنوع الزينة، علما أن هذه الأشكال مستمدة من زخرفة العمارة الإسلامية الدينية منها، أو الرسمية. أيضاً في اكساء واجهات المصطبة حيث استخدم الرخام المجزع لهذا الغرض، سواء في أشكاله البسيطة أو المعقدة منها (صورة رقم 13 و14).

لكن عنصر آخر يتصدر المجموعة التي ذكرها لأهميته البالغة في تزيين المنازل، وقلما خلا منزل قديم مترف منه وهو:

المصب

هو من أجمل عناصر التزيين في البيت التقليدي، وقد خضع هذا العنصر لاعتبارات جمالية، وإمكانات اقتصادية يجب أن يتمتع بها صاحب المنزل لكلفته المرتفعة. يتألف المصب من قطع من الرخام المزركشة بنحت نافر استمد مواضيعه من الرقش العربي، وتتناسب زخارفه مع الزخارف الخشبية للغرفة، ويثبت على الجدار إلى يسار أو يمين الداخل للغرفة – وفق موقع الباب –، ويتألف من قسمين الأسفل يصنع من ألواح رخامية ترصف بشكل عمودي يعلوها رف صغير،

وأعمدة دائرية، وتختلف من مصب لآخر، فقد يزين بالرخام المجزع، أو يزين بنقوش نباتية، أو ألواح صماء تفصل بينها قطع رفيعة من الرخام الملون، ثم القسم الأعلى ويتألف من ألواح مزخرفة أيضاً وأعمدة صغيرة ثم تاج مزخرف يعلو الجميع، أو يصنع بكامله من ألواح الرخام الرقيق، وتزين واجهته الداخلية بالرخام المجزع أيضاً، كما يدخل في زخرفته الرخام المنزل بورود جميلة، وأحيانا كان يستبدل رخام الجزء الأعلى بالخشب المنقوش (صورة رقم 29 و30 و31).

ولم تعرف للمصب وظيفة حيوية باستثناء وضع قنديل الإنارة على الرف الذي يفصل جزئي المصب عن بعضهما، بل كان وجوده لخدمة جمال الغرفة بالدرجة الأولى، وإظهار ترف البناء.

بيت دوامه

يقع المنزل في حي بستان الديوان، كان ملكا لرجل من آل ادريس، ثم اشتراه قاض من آل دوامه فأخذ المنزل تسميته من هذا الرجل وهو من نماذج البيوت المؤلفة من جناح واحد وفناء (الشكل رقم 3).

وللمنزل خصوصية مطلقة، فقد بني على ثلاث مراحل تعود أقدمها لعام 1213 للهجرة، أي مضى على بناء قسمه الأقدم أكثر من مئتا عام، بينما بني القسم الثاني عام 1303، وهي فترة تطورت فيها أساليب الزخرفة والتزيين وغلب الأبلق على واجهات بيوتها، مع الاحتفاظ بتزيين الطنف الأعلى على حدى، الجناح الثالث لا يبتعد بتاريخ بنائه عن القسم الثاني سوى أحد عشر سنة هجرية (1314هـ)كانت كافية لدخول طراز جديد على عمارة المدينة تمثل بشيوع بناء الدور الثاني فيها، وكذلك استخدام القرميد كمادة تسقيف، وشيوع الزخرفة بالأبلق على امتداد مساحة الواجهة، وبهذا يشكل المنزل مثالا نموذجيا لتطور عمارة وتزيين البيوت في المدينة، خلال مئتا عام من تاريخها.

الجناح الأول

وهو الأقدم كما أسلفت، يقع في الجهة الجنوبية للفناء، يتألف من غرفتين واسعتين سقفتا بالخشب تعلوها طبقة من اللِبن، بقي من زينة المكان بعض الخشبيات

المحلاة ببعض النقوش النباتية ما يعطي فكرة عن أسلوب نقش الأخشاب خلال تلك الفترة، يشرف هذا القسم على الفناء بواجهة زينت أطراف نوافذها بقوس يتناوب فيها حجر البازلت مع الحجر الكلسي الأبيض تعلوها ثلاث مداميك من الأبلق تندمج زواياها مع أطر النوافذ - خط من الحجارة الكلسية ثم آخر من البازلت وهكذا - وأضيف للواجهة مصطبتين إحداهما كسيت واجهتها ببلاط القيشاني الأبيض والكحلي، أما الثانية فكسيت بالرخام المجزع الملون، كما وضع على الواجهة حجر تأسيس يؤرخ المكان بعام (1213 للهجرة)، الطنف الأعلى للواجهة زين بمربعات يتناوب فيها حجر الكلس مع البازلت، وتفصل بينها ملاقف الغرف وقد أحيطت بإطار من الحجارة الكلسية (صور رقم 32).

الجناح الثاني

تبدو الحداثة عليه مقارنة بالجناح الأول إذ يعود تاريخ بنائه لعام (1303) للهجرة وقد طغى طراز الأبلق على واجهته كما زينت أعلى نوافذه بأقواس متعرجة زود الحجر المركزي لقوس بعضها بنحت نافر لزهرة جميلة، وزودت الواجهة بمصطبتين أعلاهما قوسا متعرجة لتتناسب مع النوافذ، أما واجهتهما فرخام مجزع من النوع البسيط، وزين الطنف الأعلى

للجدران بدوائر من صنجات مزررة ومربعات يتناوب فيها حجر البازلت مع ألواح الرخام الصغيرة بينما زين أعلى القمريات بقوس هندسي مدرج، ما أضفى جمالا وتناسقا بديعا للواجهة (صور رقم 33). كما احتفظ هذا الجناح بأخشابه الجميلة داخل الغرف، طغت المواضيع النباتية الشديدة التعقيد على نقوشها شغل بعضها على خلفية من المرايا اللامعة، (صور رقم 36 و37).

الجناح الثالث

وهو الأحدث، بني عام (1314 للهجرة) يتألف من دورين الأول سقف بعقود متقاطعة، بينما زود الثاني بإيوان لقيت واجهته عناية فائقة من التزيين، فبالإضافة لطراز الأبلق على الجزء الأسفل من الدورين زين الطنف الأعلى منه بدائرة من الصنجات الهندسية المتتالية ضمن مربع كبير، كما زينت أخشاب

ملاقف الغرفة المحاذية للإيوان بزخرفة نباتية. أما واجهة هذا الجناح فجاءت آية في الجمال إذ طغى الأبلق على كامل الواجهة لم يقطعه سوى إحاطة قمريات الغرف السفلى بحجارة مقصوصة بشكل منحن تتصل مع الخطوط البيضاء والسوداء للبازلت بدقة عالية، ثم زين الطنف العلوي بدوائر وسطها زهرة كبيرة من الرخام الأبيض والبازلت، أما النوافذ فأعلاها أقواس مفصصة معكوسة وقد نحتت حجارتها بدقة وانسياب مميزين (صور رقم 34 و35).

لقد احتفظ هذا الجناح أيضاً بكامل أخشابه الداخلية المزخرفة، وطغى عليها أسلوب بداية القرن العشرين المتميز بتأثره بالعمارة الأوربية فطغت الأقواس المدببة المتقاطعة يتخللها الزجاج الملون على الطنف الأعلى من النوافذ داخل الغرف بينما أغلقت الكتبيات بأبواب مسمطة مع مستطيلات نافرة في الوسط (صور رقم 38).

الفصل الرابع



الطرقات والأزقة

اعتبر الإنسان بكافة متطلباته الروحية والمادية، العنصر الرئيس المحرض، والغاية القصوى لدى قيام المدن في عالمنا العربـي، ونموها، لذلك نشأت - كما ذكـرت سابقاً - متطابقة مع حاجاته الأساسية، ومعتقداته، وأسلوب معيشته، فالمدن الـتي تلاءمت في نموها مع أناس يتنقلون عبرها سيرا على الأقدام، ولا يركبون العربـات الفارهة، جاءت طرقاتها بسيطة في تكوينها ومتشابكة في تنظيمها، تمتد مـع نمـو المدينة وتتعرج وتتفرع وفق حاجات الناس وظـروفهم الاجتماعيـة، والحياتيـة، والدفاعية، وتتجنب ما استطاعت الخطوط المستقيمة التي لا تتلاءم والنفس البشرية التواقة لليونة الحياة، ومفاجآتها السعيدة. وتتلاءم المدن مـع الأحـوال المناخيـة السائدة، فقد لعب المناخ دوراً هاماً وأساسياً في تكوينها، وتشكيل الأطر العريضة لها كمدينة. فحمص تعاني من شدة التيارات الهوائية الآتية من الغرب، وتجتاحها في

كل فصول السنة، باستثناء فصل الخريف حين تهدأ بشكل نسبـــي، وقد أثر هـــذا بالدرجة الأولى على شبكة المواصلات بها ولو ألقينا نظرة علـــى مخططهـــا العـــام لوجدنا معظم شوارعها تتجه شمالا أو جنوبا، وتكاد تنعدم الشوارع العريضة نسبيا في المنطقة الواقعة على الطرف الغربـــي للمدينة، باستثناء فتحات الأبواب، كباب هود وباب التركمان، والباب المسدود أيضاً، اذ تبدأ بشوارع عريضة لا تلبـــث أن تنحرف بزاوية نحو الشمال أو الجنوب متجنبة اتجاه الريح فتصبح جدران البيـــوت القائمة صادات جيدة تتلقى الصدمة الأولى منها، ما يؤدي لتخفيف حدة اندفاعها باتجاه عمق المدينة.

ان دراسة شبكة المواصلات بما فيها من الشوارع والطرقات والأزقة المفتوحة والمغلقة، تعترضها صعوبات جمة في حمص، فالتوســـع العمـــراني اكتســـح كافـــة مفاصلها، وغيَّر هيكلها، فقد أزيلت طرقات كاملة، وأزقـــة بعينـــها، وأُحـــدثت أخرى، كما وسعت بعض شوارعها، لأغراض خدمية لكنها لم تحـــظ بالدراســـة الوافية المطلوبة فأعطت نتائج رديئة بحجم الأسلوب العشوائي الذي تمت به.

هذا التغيير دفعني للاعتماد على المخطط الذي وضع عام 1920 من قبل سلطة الانتداب الفرنسي وهو المخطط المعتمد حالياً من قبل الدوائر الرسمية، كالبلديـــة، دائرة الآثار، والسياحة كونه الوثيقة الأهم للمدينة، والذي أُعدَّ حين كانت لا تزال تحتفظ بطابعها الأصلي. إلى جانب الدراسة الميدانية لما تبقى على حاله فيها.

وصف معظم الرحالة الذين زاروا حمص حالة شوارعها حيث لفت انتباههم حسن تنظيمها، وقد أجمعوا على أنها مدينة نظيفة وخالية من الأوساخ التي تعـــاني منها دمشق المبنية من اللِبن، ويعود السبب إلى عاملين:

الأول: معظم أبنيتها شيدت من حجر البازلت، وهو حجر نظيف وصلب، لا تؤثر فيه العوامل الجوية من أمطار ورياح. فينجو بهذا من عمليات الحت التي تراكم عادة الأتربة في أماكن عملها.

ثانيا: جميع شوارعها رصفت بهذا الحجر، وصممت بحيث لا تستقر فيها مياه الأمطار، كما سأشرح لاحقا.

ورد في كتاب الرحالة الإدريسي الذي زار حمص في القرن السادس الهجري ما يلي "حمص مدينة حية وذات أسواق ناشطة وشوارع مرصوفة". – وهذا لا يتعارض

مع ما ذكرته سابقاً عن حالة الركود التي عانت منها التجارة، كون زيارة هذا الرحالة تمت قبل أن تلم بها الكوارث الطبيعية - وباعتبار أن العمارة اعتمدت على حجر البازلت، فرصف الشوارع اعتمد أيضاً على هذا الحجر ولا تزال بعض طرقاتها وأزقتها الباقية تشهد على هذا. ومنها يمكن لنا أن نتعرف على أسلوب رصف الطرقات من الناحية الهندسية، فقد صممت ورصفت على شكل قوس أعلاه في الوسط، وتنحدر أطرافه بانسياب على الجانبين بحيث لا يزعج السائرين عليه، وينتهي إلى صف من الحجارة الأفقية تعمل كقناة تحمل مياه الأمطار إلى مصارف خاصة موصولة بأقنية الري، وعلى أطراف الطريق، بمحاذاة جدران البيوت المجاورة ترصفت حجارة تميل بزاوية منفرجة فتلتصق بجدار المنازل وتمنع مياه الأمطار من الوصول إلى الجدران أو الاحتكاك بها، وقد طبق هذا النظام على كافة الطرقات والأزقة حتى الضيقة جداً والمغلقة بآخرها، فحافظ هذا على نظافة المدينة، ومنع تراكم الوحل فيها، وصان أسس المنازل المجاورة من التلف (صورة رقم 1).

هذا من حيث أسلوب رصف الطرقات، اما من حيث توزعها، فتتميز المدينة بطرقات قصيرة نوعا ما ومتعرجة. كما هو حال كافة المدن القديمة، وتقل بها الطرقات الطويلة، فباستثناء تلك التي تفصل بين الأحياء الرئيسية، كشارع الامام مالك، قصر الشيخ، ابو الهول، شارع محمد عبدة، وشارع التركمان المتمم لشارع الحسيني باشا، فان جميع طرقات المدينة قصيرة نسبيا، أذكر منها الذهبي، ابن عطا الله، الفضائل.

ومعظمها يتجه شمال جنوب، وبانحراف ظاهر عن اتجاه الرياح، بل وتكتظ بيوت المدينة في الجانب الغربي منها حتى تكاد تتلاصق بحيث تشكل كتلة قوية تندر فيها الشوارع وتقتصر ممراتها على الأزقة الضيقة. وربما حدث هذا النمو الهائل في القرن التاسع عشر، أي يلي الفترة التي أتحدث عنها.

تشكل الأزقة الضيقة، ذات النهايات المغلقة جزءاً مهماً من معابر المدينة، وقد أرجع الباحث الفرنسي سوفاجيه هذا إلى حالة الانغلاق الاجتماعي، وعادة الفصل بين النساء والرجال في المجتمعات الإسلامية، وهذا لا يجانب الحقيقة، فإغلاق الدرب النافذة لا يخدم هذه العادة لا من قريب ولا من بعيد. وإن بحثنا أكثر نجد أن هذه الأزقة تنتشر في الأحياء المسيحية الأكثر انفتاحا بنفس القدر الذي تنتشر به

في الأحياء الإسلامية، ان لم يكن أكثر، وأوافق الباحث الفرنسي الدكتور أندريه ريمون الرأي المؤيد لفكرة تصميمها بهذا الاسلوب لأسباب دفاعية صرفة. فالمدن التي عانت الكثير من الغزو الخارجي، ومن الهجمات المتكررة للصوص الطامعين والقاطنين على مقربة منها، ابتكرت طريقة مثلى للقبض على هؤلاء الغزاة تمثلت بإغلاق نهايات الممرات مما يسهل حصر المجرمين والقبض عليهم، إضافة إلى أن وجود المدينة ضمن رقعة محددة سلفا من الأرض - أي ضمن الأسوار - زاد مع تقدم الزمن وزيادة عدد السكان، من الطلب على الأراضي المخصصة للبناء، مما أستدعى اغلاق بعض المنافذ الغير فاعلة، أو التي يمكن الاستغناء عنها، فالتوسع الشاقولي - الطابقي - لم يدخل المدينة الا في نهايات القرن التاسع عشر، ما رفع الحاجة للاستفادة من كل ما هو متوفر من الأراضي في أعمال البناء، كما أن الروابط الأسرية القوية بين الأفراد، والعلاقات الأسرية التي امتازت بها حمص زكّت الحاجة لاقتراب هذه الأسر من بعضها وتفضيلهم للسكن متجاورين وهذا بالنتيجة أدى لاختصار مساحة الطرقات والاستعاضة عنها بأزقة ضيقة تكفي لعبور المارة.

لقد أفرزت الحاجة الماسة للأراض المطلوبة للبناء والتي برزت على أشدها أثناء فترة الازدهار الاقتصادي للمدينة شيوع نمط جديد في البناء ليس البناء الطابقي فحسب وانما الاستفادة من رقعة الأرض التي يشغلها الشارع، أو الطريق المجاور، وذلك ببناء قباء أو سقف قوي ومدعم فوق الطريق، ويستفاد من هذه المساحة ببناء غرف ملحقة بالمنزل، وهو ما يسمى "السيباط"، لقد عرفت حمص هذا النموذج من العمارة ولكن على نطاق ضيق جدا، أما شيوع استخدامه كحل هندسي مثالي للحصول بموجبه على مساحة أفضل للبناء فيعود إلى العصور البيزنطية إذ تمت مشاهدته في القلاع المؤرخة بتلك الفترة من التاريخ، لكنه حل لا يقدر سوى الأغنياء والمتنفذين من السكان الذين تمكنهم قدرتهم المالية على تحمل النفقات المترتبة عن عملية البناء هذه.

السيباط

درجت العادة في المدن المكتظة بالسكان أن يبني الأثرياء، ووجهاء المدينة بيوتهم مستفيدين من رقعة الأرض التي يشغلها الطريق المجاور، ببناء عقد طولي، أو

عقود متلاحقة فوق الشارع أو الزقاق، ويكون هذا القباء هو الطريق الذي يسلكه المارة في رواحهم ومجيئهم عبر الحي، وهي ما سمي بالسيباط.

وردت كلمة السيباط في المصادر اللغوية "ساباط". وتعني "سقيفة بين دارين تحتها طريق نافذة".

هندسياً. لا يتمتع السيباط بمزايا معمارية هامة أو فريدة يمكن أن تضيف جديدا، فهو لا يتعدى كونه ذلك القباء الطويل المفتوح من الجانبين تزود جدرانه الداخلية أحياناً بقطع من الحجارة البارزة توضع عليها فوانيس الإنارة ليلاً، ولا يضاف له شيء من الزخرفة، وجل أهميته، زيادة مساحة البناء الذي يشيد في الأعلى، وحماية المارة من العوامل الجوية، كالمطر واشعة الشمس.

يشكل السيباط معمارياً جزءاً حيوياً من كتلة بناء واحدة تؤلف بيتاً كبيراً، أو قصرا مع ملحقاته يتصل بجسم الحي المجاور في الضلع المقابل حيث تنتشر الأبواب الخارجية للمنازل الملاصقة لهذا الضلع، وتعلو السيباط في العادة غرف مزودة بنوافذ مفتوحة على الأزقة والطرقات المجاورة، وفي هذا إشارة على خروج العمارة عن إطارها التقليدي المؤلف من منزل فتحت نوافذه على الفناء الداخلي فقط، الذي التزمت به حمص التزاما كاملا طيلة عقود من الزمن، فقد تناسب مع طبيعة مجتمعها المغلقة، وعاداته الصارمة. وظهور نوافذ مفتوحة تطل على الشارع إشارة تؤخذ بالاعتبار، تدل على تحول ثقافي وفكري جاد داخل بنية المجتمع. وظهور بوادر الانفتاح الاجتماعي الذي بدأ يشرق على مجتمع قضى فترة ليست قصيرة منغلقا على نفسه. كما يؤكد النظرة التي تلمح إلى أن التطور الاجتماعي كان يبدأ أولا لدى الأسر البرجوازية أولاً والأرستقراطية الكبيرة التي كانت تقود المجتمع وتوجه الرأي العام.

يطل السيباط على الطريق العام بواجهة مؤلفة من قوس كبيرة، ويختلف شكل القوس من سيباط لآخر. فبينما نجده مدبباً ومتناسقاً في سيباط عز الدين (صورة رقم 2) نلاحظ في سيباط القاضي - الأقدم عهدا - عدم انتظام أطر أقواسه ورداءة بناء القباء (صورة رقم 3)، بينما هو قوسا نصف كروية متقنة البناء في سيباط الحسيني الأكثر حداثة. هذه الأقواس مع اسلوب قباء السيباط تعطي فكرة عن تاريخ البناء وترفه في آن واحد. فسيباط القاضي - يقع في حي باب الدريب -

وعلى رغم سعته ووجود ثلاث مداخل له، واتساع الدار التابع لها، لكنه كبناء يتميز بالتقشف الشديد، فقباءه الطويل غير مرتفع وشيد من حجارة غير مشذبة ربطت بملاط من الطين ثم أضيف له كسوة من طينة دخل التراب والقش ضمن مكوناتها. كما خلت الدار التابعة لها من الزينة المترفة والزخرفة باستثناء بعض كوى الملاقف المطلة على الفناء، كما خلا البيت من أعمال الإبداع الهندسي، فهو بمعظمه يتسم بالبساطة المفرطة، أما اتساع الدار قياسا ببعض البيوت المحيطة، فجاء ليخدم وظيفة صاحبه المهيأة لاستقبال عدد وافر من الزوار، يأتون لحل مشاكلهم لدى القاضي صاحب المنزل، لكن الوضع العام يشير إلى وضع مادي يكفل العيش لصاحبه، لكنه لا يمنحه الرفاهية. وباعتبار أن بناء السيباط يوافق عادة تاريخ بناء المنزل التابع له فيمكن لنا تأريخ هذا السيباط بعام 1260 للهجرة، استنادا إلى لوحة تأسيس المنزل التي سطرت عليها الأبيات التالية:

أقبل ولا تخف إنك من الآمنين

أقبل ولا تخف نجوت من القوم الظالمين

تم بكنف الله رمضان سنة 1260 هـ

ويوافق هذا سنة1844 م (صورة رقم 3).

سيباط قصر الباشا مصطفى الحسيني يختلف من حيث الوظيفة، كونه يشكل معبرا خاصا لكامل الكتلة المعمارية الملحق بها. فالقصر يتألف من كتلة معمارية ضخمة مؤلفة من دورين وجامع، ويشكل السيباط المعبر الرئيس للجامع في نهاية فتحته، وله مدخل جانبي يؤدي إلى الجناح المخصص للرجال حيث وضع حجر تأسيس القصر وقد نقشت عليها الأبيات التالية:

دار بنجل الحسيني مصطفى ابتهجت

بالبشر قد زانها ماء وأزهار

صاحت بلابلها أهلا بزائرها

أرخ بالهنا قد تمت الدار

ويوافق هذا 1304هـ، 1887م.

شيد السيباط من حجارة مشذبه وبنيت واجهة قوسه بعناية وزينت بقطع من الحجارة البيضاء تتناوب مع حجر البازلت، وسقف بعقد طويل، ثم فرشت أسفل القباء حصيرة من القصب، دعمت بعوارض خشبية، لمنع سقوط ذرات الطينة التي تربط حجارة السقف ببعضها على المارة، وأضيفت دعائم حجرية قوية لتحمل ثقل البناء الذي يعلوها (صورة رقم 4 و5).

أجمل سيباط في المدينة هو السيباط التابع لمنزل آل الجندي، بني على شكل حرف (T)، ويتألف سقفه من عقود متقاطعة تمتد ثلاثين مترا ضمن الشارع الموازي لشارع أبي الهول، ويتوسط هذا القباء انفراج كبير سُقف بعقد متقاطع ينفتح على شارع أبي الهول بقوس كبير مخموس، وتم إكساءه بطينة متماسكة، والداخل إلى المكان من الشارع السابق الذكر يقابله باب المنزل وقد زخرف بطريقة تذكّر أقواسه المتتالية بالعمارة القوطية المتأخرة، وملأ الفراغ بين قمة الأقواس وباب المنزل بحجارة مشذبه تناوب فيها حجر البازلت مع الحجر الكلسي تتوسطه قوس من صنجات مقوسة، ثم حجر صغير يؤرخ البناء بعام 1309 هـ. (صورة رقم 6).

سيباط عز الدين هو الأحدث بين ما ذكرت نسبة لتاريخ البناء التابع له، يقع في منطقة قريبة من الباب المسدود، ويطل على أحد أبراج سور المدينة المتبقية، يلاحظ إتقان عمارته والحجارة المصقولة بعنايه التي بني بها، وهو يتبع أحد الأبنية الفريدة في المدينة، فالجزء الشمالي من البناء ذو طراز محلي صرف، بينما الجزء الجنوبي منه أوروبي تطل واجهته ذات الأقواس المدببة والزجاج الشفاف على الحي المجاور لها (صورة رقم 2 و7).

الخدمات الترفيهية

يمكن تصنيف مدننا القديمة، بالمدن الأكثر تقشفا، لقلة اماكن الترفيه فيها، مقارنة مع المدن القديمة في العالم، التي ضمت بين أبنيتها الملاعب العامة والمسارح. فقد خلت مدننا من هذه المظاهر، لكنها ابتدعت لنفسها حلولاً تمثلت بالحمامات والمقاهي، إضافة إلى وجود ملعب للتدرب على ركوب الخيل، كان يطلق عليه اسم الميدان يتنافس به الفرسان من الشباب، بل والكهول أيضاً، حيث تعقد بين

الفينة والأخرى حلقات خاصة للمطاردة والسباق والفروسية، يتبارى فيها شباب وفرسان المدينة، ومركزه خارج السور، الا أن هذه الرياضة المحببة من الجميع، كانت مخصصة لفئة من الناس مقتدرة مادياً تُمكّنها ظروفها من تربية الخيول، والعناية بها. أما العامة من الناس فاقتصرت مشاركتهم بها على المشاهدة فقط.

المقاهي

احتلت المقاهي حيزا هاما في الحياة الاجتماعية للسكان في مدننا القديمة، يؤمها الرجال ومعظمهم من صناع الحرف أو معلميها، صباحا لتناول الشاي أو القهوة بعد صلاة الفجر، وقبل البدء بالعمل، ومساء يؤمها الجميع، لتمضية وقت ممتع مع الأصحاب، فهي مكان للسمر شكّل متنفساً للسكان، خاصة الشباب منهم، لكنها لم تأخذ شكل المقهى المعروف في عصرنا هذا، فمن حيث البناء كانت عبارة عن غرفة واحدة أو غرفتين متواضعة خالية من الزخرفة أو أي عامل من عوامل الجذب المعروفة حالياً، فهي وببساطة مكان للتجمع ليس إلا مبنية من الحجر ومسقوفة باللِبن والخشب، أو معقودة بالحجارة، أما الأثاث فلم يتعدى الحصر البسيطة وعلى جوانبها رصفت الفرش والمساند تتكئ على الجدار لتؤمّن جلوسا مريحا إلى حد ما، وكان زبائنها يجلسون على الأرض مباشرة، أما الطاولات والكراسي فلم تدخل ضمن أثاثها وتستخدم فيها الا فيما بعد، إذ ترافق وجودها مع دخول التطور العمراني للمدينة. و لم تعرف أعمال التزيين الداخلي الجاذب للزبائن الا على نطاق محدود لم يتعدى بعض أعمال الدهان البسيط.

وكانت تقدم بها الأشوبة الدافئة شتاء، كالزهورات، والعصائر المنعشة صيفا، كالليمون (الليمونادة). التي تعدّى تقديمها حدود المقهى، ففي المقاهي القريبة من الأسواق كانت ترسل المشروبات مع العامل لتلبية طلبات التجار في محالهم ليقدموها بدورهم للزبائن المهمين، أو لدى تعرف التجار على بعضهم البعض تمهيدا لعقد الصفقات المهمة، كما تقتضي أصول العمل، مما يخلق جوا من الود يؤهل لاستمرار العلاقة فترة طويلة.

أما النشاطات التي كانت تجري بها مساء، فإلى جانب الألعاب المعروفة محلياً كالطاولة والضاما، كانت أيضاً تتسابق فيما بينها، بين الحين والآخر، لاستضافة

الحكواتي، طبعاً بدفع أجر مناسب له، ليسرد ليلة بعد ليلة سيرة عنترة، أحب الحكايات على قلب الجمهور، وسيرة بني هلال، الزير سالم، ومقتطفات من ألف ليلة وليلة.

يتبع الحكواتي، لإنجاح عمله، أسلوباً تشويقياً في التوقف عن السرد في اللحظة الحرجة مغلقا كتابه وواعدا الجمهور المتلهف لمعرفة نهاية الحدث بالمتابعة في اليوم التالي، وبين الحين والآخر تستضيف، أو تفد إلى المقهى إحدى فرق خيال الظل لتقدم عروض كراكوز وعيواظ الشخصيتين الأشهر في هذا الفن البسيط، واعتبر هذا من أهم النشاطات التسويقية آنذاك.

هذا ولم يعرف تاريخ بناء أول مقهى في حمص، وإن اعتبرت قهوة بني السباعي من أقدمها، فقد ذكرت في وثيقة تعود إلى سنة 1268هـ - 1851م. كما أحصى الأستاذين الزهراوي والسباعي ضمن كتابهما ثمان وعشرين مقهى ضمن الأسوار توزعت في أرجاء المدينة، تعود بتاريخها إلى القرن التاسع عشر، شكلت كل منها متحداً اجتماعياً مستقلاً عن الآخر إلى حد كبير، وقسمت إلى مقاه للذوات، يرتادها أبناء العائلات، وأخرى وفق الطوائف الدينية، التي اقتصرت في حمص على الإسلام السنة، والمسيحية الأرثوذكس. ومقاه أخرى لأصحاب الحرف، الا أن هذا التقسيم لم يكن ثابتاً، بل شهد ضمنه تحركات واسعة جمعت الناس مع بعضهم، سواء في المناسبات أو لدى زيارة الفرق المسرحية المتمثلة بفرقة خيال الظل، إذ فاق تعلق الناس فيها كل وصف. هذا وقد لعبت المقاهي دوراً آخر في حياة الناس، غير الترفيه عنهم، فقد كان لها دوراً مهماً في تقوية الروابط، وتقديم الدعم المعنوي للذين تربطهم أواصر واحدة، سواء كانت مهنية أو اجتماعية، طبعاً إضافة إلى الدور الريادي لها في الحياة السياسية فيما بعد، حين بدأت تظهر في الأفق بوادر اليقظة، والرغبة القوية بالتخلص من الاستعمار العثماني، بداية القرن العشرين.

على الصعيد الشعبي، ساعد وجود المقاهي التي اختصت برواد يعملون في حرفة واحدة، كقهوة الدباغين، الصوف، الزرابلية، وغيرها من المهن، ساعدت روادها، لدى تعطلهم عن أعمالهم، أو فقدانهم لها في العثور أحياناً على فرص جديدة، وبالتالي ساعدتهم في كسب لقمة العيش، فأصحاب الحرف كانوا إما

يرتادون هذه المقاهي، أو يرسلون من ينوب عنهم للبحث عن العمـــال المهـــرة في الأماكن التي يترددون عليها، لجلبهم إلى مشاغلهم للعمل فيها، كما يلجأ العمـــال إليها لفض الخلافات التي تنشب بينهم خلال فترة العمل، أو لتعزيز معـــارفهم في الحرف التي يعملون بها من خلال تداولهم أحاديث العمل.

الفصل الخامس




البيوت الدينية

كان الدافع الرئيس والمحرض الأساسي لخروج العرب المسلمين من الجزيرة العربية بهذا الدفق القوي، هو نشر الدين الإسلامي في البلاد التي يصلون إليها، وقد تم لهم هذا في فترة قياسية، ونظرا لكون الدين دافعهم الرئيس فقد كان العمل الأول الذي قاموا به بعد فتح أية مدينة، هو البحث عن مكان يقيمون فيه شعائرهم الدينية، يستخدمونه أيضاً كمركز انطلاق لنشر الدين الجديد والتبشير به.

لقد كان معظم السكان في الأمصار التي وصلوا إليها ببلاد الشام من المسيحيين وقلة من اليهود وبعض الوثنيين الذين لم يغيروا ديانتهم بعد اعتناق الإمبراطورية الرومانية للدين المسيحي. وقد فُرض إعتناق الدين الإسلامي على من لا يعبدون الله (الوثنيون) فرضاً، بينما خيّر من يدينون بالديانات السماوية الأخرى بين دفع الضريبة، أطلق عليها اسم "الجزية" لقاء حمايتهم، وبين الدخول في الدين الإسلامي. فكان أن اختار كثيرون منهم الدخول بالدين الجديد، إما لضيق ذات اليد، أو الرغبة في الولاء للحكام الجدد، إضافة إلى عدد لا يمكن تحديده تحوَّل إلى

الدين الإسلامي رغبة فيه وإيماناً به. بينما حافظ الورعون من المسيحيين على دينهم مهما كلفهم الأمر.

لقد خدم هذا التحول الكبير من المسيحية إلى الدين الإسلامي القادة العسكريين وساعدهم في تزكية الفكرة القائلة بعدم حاجة المسيحيين، الذين تضاءل عددهم، إلى كنيسة كبيرة الحجم كالذي كانت عليه الكنائس الرئيسة في مدن الشام الكبرى. وأن مكانا أصغر يفي بالمطلوب، لتلبية حاجاتهم للقيام بشعائرهم، لقد كانوا، أي قادة الإسلام، في عجلة من أمرهم، فالفتوحات، ونشر الدين كان شغلهم الشاغل، و لم يكن لديهم متسع من الوقت لبناء مساجد لهم، ولا الزمن الكافي للتفكير بالبناء، إضافة إلى أن أركان الحكم في هذه الأمصار لم تثبت بعد، فكان أن اتخذ القادة العسكريون قراراً حاسماً في هذا المجال. وهكذا تم اقتسام الكنائس الكبرى في المدن التي فتحوها، وبدأوا بممارسة شعائرهم في القسم الذي خصوه بأنفسهم، وترك الجزء الآخر للمسيحيين يقيمون فيه صلواتهم.

ثم جاء، فيما بعد، قرار الخليفة الوليد بن عبد الملك، المحب للعمارة، في دمشق، ليشكل الضربة الأخيرة في هذا المجال، حين وضع يده بالكامل على كنيسة "القديس يوحنا المعمدان" الدمشقية، وقرر بناء أول جامع كبير في عاصمة الخلافة الأموية.

هذه الكنيسة، كانت في الأصل معبدا آراميا. ثم اختار الحكام الرومان موقعه ليكون معبدا لكبير آلهتهم، فنقضوه وبنوا مكانه معبدا ضخما يليق بمقام الإله "جوبتر" أكبر آلهتهم وأكثرها شعبية.

لكن روما ما لبثت أن تحولت، في الربع الأول للقرن الرابع ميلادي، عن آلهتها التقليدية، وآمنت بالدين المسيحي، وتحول هذا المعبد عن وظيفته فنقض جزئياً، وبنيت في مكانه إحدى أهم الكنائس آن ذاك. ثم تحول بعد هدمه جزئياً - تمت المحافظة على الأسوار الخارجية التي كانت بالأصل أسوار المعبد الروماني - ليصبح أخيرا واحدا من أهم وأكبر، بل وأجمل المساجد الإسلامية.

وهكذا تحولت وظيفة المكان أربع مرات عبر الزمن. ليكون بهذا شاهداً رئيساً على تحول التاريخ، ببساطة، حيث كان التاريخ يسجل عبر الزمن، انعطافاته الحادة في هذا المكان.

ورغم أن الخليفة الوليد أقطع للطائفة المسيحية أراض أخرى خصصها لبناء كنائس جديدة، ورغم أنه أجزل العطاء بالنقود، كمساهمه منه في بناء الكنائس الجديدة، الا أن قداسة هذا المكان المتوارثة عبر أجيال من التاريخ في المجتمع السوري، جعلت قبول هذا العرض، هو قبول المغلوب على أمره، وظلت مشاعر الغبن تضرب جذورها عبر التاريخ، وما زالت...

ما حدث في دمشق، حدث أيضاً في كافة المدن الشامية الرئيسة التي كانت الديانة المسيحية سائدة فيها كحلب، حماه، وحمص أيضاً.

لقد جسّد الوليد حبه للعمارة ببناء المسجد الجامع في دمشق، هذا المسجد الذي اكتسب اسم السلالة الحاكمة فيها. وحذت المدن الأخرى حذوه. فكان الجامع الأموي في حلب، أما في حماه، وحمص فالأمر اختلف قليلاً. لقد صممت جميع المساجد وفق نموذج واحد استمد أصوله من مسجد الرسول (ص) في المدينة المنورة. الحرم، الرواق المسقوف، صحن الجامع، غرف التدريس التي زودت لاحقاً بمكتبة، وأمكنة الخدمات كالمراحيض والميضأة، إضافة إلى الأبواب المتعددة لتيسير الدخول إليه دون عناء.

هذه المساجد مازالت تسمى حتى الآن بالجامع الأموي، باستثناء مدينتي حماه وحمص اللتان تطلقان عليه اسم الجامع النوري، نسبة إلى القائد والحاكم نور الدين الزنكي الذي أعاد بناء مسجديهما إثر هدم أصولهما بعد الزلازل التي أصابت المدينتين عام 552هـ 1157م وهدمت، أو زعزعت أبنية المدن ما استلزم إعادة اعمارها من جديد.

ومع تقدم الزمن الذي يترافق مع النمو المتزايد للسكان ظهرت الحاجة الماسة لبناء مساجد جديدة تخفف الضغط الحاصل، والعبء الكبير عن جامعها الكبير، وتؤدي خدماها للمصلين الذين يقطنون بالجوار، أو تتمركز أعمالهم بقربها، فأقيمت مساجد جديدة، لكنها كانت أصغر حجما، وتوزعت في الأحياء السكنية، أو الأسواق، بعيدا أو قريبا عن الجامع الكبير كما أصبح يسمى في اللهجات المحلية كناية عن سعته، وتمييزاً له عن بقية المساجد، ففي جميع المدن الإسلامية، احتفظت المساجد الأولى التي بناها الحكام الأوائل ومعظمهم كان من قادة الفتح، احتفظت بمكان الصدارة من حيث القداسة، والتكريم لدى المسلمين.

إلى جانب المساجد، بدأت تظهر في المدن والولايات الإسلامية منشآت جديدة لها صفات دينية، كالأضرحة، الزوايا والخوانق. مسجلة في هذا تطوراً حدث في بنية الفكر الديني الإسلامي الذي نشأ في البادية، بسيطاً كبساطتها، وصارما كطبع ناسها، يميل إلى التقشف لا يعبد سوى الله (جل) ولا يقدس الا الرسول (ص)، وكان لهذا التطور أسباب من أهمها:

1- بُعد العواصم التي تعاقبت على هذه الإمبراطورية الكبيرة دمشق، بغداد، الآستانة – عن المكان الذي نشأ به الدين الإسلامي.

2- امتداد الإمبراطورية الإسلامية في أقاليم واسعة جديدة كانت لها ثقافاتها المحلية الخاصة، وهذا أدى بدوره لاكتساب ثقافات جديدة لم تكن معروفة في الأرض الأم.

3- الاضطرابات السياسية الكبرى التي عصفت بالإمبراطورية، وانصراف الساسة عن رعاياهم نحو توطيد أركان حكمهم.

4- الانقسامات التي حدثت في جسم الإمبراطورية الإسلامية، وظهور إمارات ودول شبه مستقلة في الأقاليم البعيدة عن المركز (العاصمة)، والخلافات السياسية بين هذه الإمارات أو الدول الناشئة وبين المركز الرئيس للخلافة، وبين بعضها البعض.

5- معاناة السكان الكبيرة من الحروب المحلية الدائرة، والغزو الخارجي أيضاً، التي كان عليهم دفع ثمنها، ومن انصراف الساسة عن رعاية شؤوهم وتلبية احتياجاتهم الملحة وانصرافهم إلى شؤوهم الخاصة ورغباتهم، ما فتح الباب عريضا أمام الفقر ومجرياته من تفشي الأمراض، والبؤس، وانتشار التخلف الذي بدأ ينخر في مجتمعاتهمْ.

6- اختلاف رجال الدين والفقهاء فيما بين بعضهم البعض وعدم وجود مرجعية دينية ثابتة تتصدى لحل المسائل العالقة إثر الخلافات الحادة في التفسير، ومساهمة هذا في ظهور الأفكار المتطرفة.

7- تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لدى غالبية السكان كنتيجة طبيعية لكل ما سبق.

8- رغبة الكثيرين في العودة إلى التعاليم الأساسية للدين الإسلامي، ضمن ظروف

ثقافية متردية، ما دفعهم لإضفاء صفة القداسة على الكثير من الشخصيات التي اشتهرت بورعها وتقواها الشديدين.

كل هذا أدى بالنتيجة لظهور أبنية دينية جديدة لها وظائف تختلف عن وظيفة المسجد، وإن كانت لا تبتعد كثيرا عنه، كالأضرحة التي أقيمت للأولياء الصالحين، والزوايا التي تقام بها شعائر الطرق الصوفية التي وفدت لاحقاً إلى الدين، واكتسبت مكانتها من التعاليم التي كانت تنشرها، وأيضاً مكانة الشيوخ الذين أقاموها، وتولوا نشر طرقهم في التقرب من الله (جل) والتوحد فيه. إضافة إلى الخوانق والتكايا التي تؤوي الدراويش.

وقد اختلف ترف بناء هذه المنشآت وفق المستوى الاقتصادي للمدن التي أقيمت بها، وكذلك المكانة السياسية التي شغلتها، إضافة إلى الوضع الاقتصادي للسكان المقيمين، فمعظم هذه الأبنية تولى السكان المحليون بناؤها والإنفاق عليها، إذ اقتطعوا لها المحال التجارية والأراضي الزراعية، وأحيانا البساتين، ليضمنوا لها دخلاً جارياً يحافظ على بقائها، ما يضمن استمرارها في أداء الوظيفة التي أرادوها لها.

ذكرتُ سابقاً أن الكوارث الطبيعية التي ألَمت بحمص ساهمت إلى حد كبير بفقدان هذه المدينة لأهميتها، حتى تحولت إلى مدينة صغيرة مغلقة تقريبا وتابعة لغيرها في العهد العثماني، بعد أن كانت متبوعة. ومن الطبيعي أن يؤثر هذا على مستوى العمارة فيها والترف الذي يمكن لهذه العمارة أن تتمتع به، لذلك جاءت معظم الأبنية الدينية فيها فقيرة في زخارفها، ومتواضعة في أسلوب عمارتها، مقارنة مع غيرها من مدن الشام كدمشق مثلاً وحلب. لكن ومع هذا فهي كثيرة العدد وتنتشر في كافة أنحاء المدينة، حتى لا يكاد يخلو شارع منها، وهي ميزة انفردت بها عن غيرها من مدن الشام التي عاشت وضعاً اقتصادياً أفضل ساعد على ازدهار العمارة ذات المردود الاقتصادي الجيد كالحمامات، الخانات، والقيسريات، والأسواق، عن العمارة الدينية التي تحتاج للإنفاق عليها. ويرجع سبب هذه المفارقة إلى أن الوضع المادي المتردي لغالبية السكان في المدينة نتجت عنه حالة من الانغلاق الاجتماعي سببها الفقر الذي قلل فرص إقامة علاقات وصلات اجتماعية مع مجتمعات أخرى أوسع ثقافة، وأكثر انفتاحا، كدمشق، وحلب، وبيروت،

وطرابلس، وغيرها من المدن المزدهرة في تلك الحقبة من التاريخ، وأثر هـذا علـى روح المغامرة التي تترافق مع عقد الصفقات التجارية الكبرى ذات الربح الـوفير، وبالتالي، التفكير بإقامة المنشآت الاقتصادية الكبيرة، والتي بدت لسكان المدينـة آن ذاك غير مجدية لانعدام فرص الربح - تقريباً - فيها. ما دفع الناس للانصـراف إلى شؤون دينهم عن التفكير بدنياهم، وساهم في تحديد الأطر الثقافية للمدينـة الـتي تقوقعت ضمن نطاق محدود لا تزال تعاني منه حتى عصرنا الحديث هذا.

اعتاد الناس اللجوء إلى الله (جل) حين تعصف الأزمات في حياتهم، وزيـادة في التقرب كانوا يتقربون للتوسط لدى الأولياء الصالحين علّهم يجـدون لـديهم الخلاص. وأصبح بناء الأضرحة والجوامع جزءاً من طقوس تأكيد العبادة والـورع تولاه المقتدرين من الناس، ولا نقول الأثرياء، فلا ثروة كبيرة في المدينـة آن ذاك، فالعمارة التي قاموا بإنشائها شاهد على هذا، وتولى بعض الميسورين وهب الأوقاف من محال تجارية أو قطعة أرض زراعية، كصدقة جارية لصالح هذه الأبنيـة، الـتي تظهر دراستها تشابها في اسلوب عمارتها وكذلك سعتها، وخلـو معظمهـا مـن العناصر الفنية المترفة والزخارف الجميلة المكلفة التي تمتعت بها العمارة في كل مـن دمشق وحلب اللتين زهتا بأبنيتها المميزة، وبالإضافات التي قدمتها لفن العمـارة، حين تفنن المعماريون فيها في ابتكار أنماط جديدة من الزخرفة، وصل التعقيد فيهـا حدا كبيرا. بينما اعتبر دخول أي عنصر زخرفي إلى العمارة في حمص مهما بلغـت بساطته عملا متميزا. وبدت جميع أبنيتها الكبيرة منها والصغيرة متشـابهة، يغلـب عليها التقشف حتى وصل حد الفاقة أحيانا، وغاب عن شوارعها التميز المعمـاري الذي تباهت به المدن الأخرى. وإذا أردنا أن نقدم وصفا لمجمل مسـاجد المدينـة، يقتصر القول على أنها أبنية صغيرة اتبع معظمها المخطط الأموي لعمارة المسـاجد، فناء وحرم ورواق ومآذن كبيرة مربعة المسقط خالية من الزخرفة، تزود فقط بشرفة تعلوها قبة صغيرة، وترتفع عاليا نحو السماء لكأنها بحالة تضرع دائمة إلى الله (جل) (الصورة 1).

تنفرد حمص عن غيرها من المدن الشامية بميزة هامة تتفوق بها عـن غيرهـا، وهي كثافة عدد البيوت الدينية فيها، وان كانت في أحسن حالاتهـا - باسـتثناء بعض الجوامع الهامة - لا تتعدى كونها مساجد صغيرة، وأضرحة لبعض الأوليـاء،

وصحابة الرسول (ص) الذين سكن عدد كبير منهم المدينة بعد دخولهم إليها وسكنهم فيها مع الفتح الإسلامي، وإذا تمت مقارنة عدد البيوت الدينية مع عدد السكان في الفترة التي أتحدث عنها، للفت الانتباه كثافة هذه النسبة.

أولا: هجرة العديد من صحابة الرسول كمقاتلين أثناء الفتح، وقد أغرتهم الأهمية البالغة للمدينة بالسكن فيها حيث وصلت حدود ولايتها حتى قنسرين في الشمال. وانتهى الأمر بوفاة العديد منهم فيها.

ثانيا: سكن القائد خالد بن الوليد ووفاته فيها بعد تنحيته عن قيادة الجيش العربي ما أضاف اليها مكانة خاصة لدى مناصريه من المسلمين الذين ارتبط اسم هذا القائد لديهم بذكرى الفتوحات المشرّفة في التاريخ.

ثالثا: وهذا لا يتعارض مع ما ذكرته، الوضع الاقتصادي السيئ الذي تردت اليه المدينة، بعد تغير عاصمة الخلافة وانتقالها إلى بغداد واهمال المدينة من قبل خلفاء الدولة العباسية، كذلك الكوارث الطبيعية المتوالية التي ألّمت بها خلال التاريخ، والأثر السلبي لهذا على سكانها.

وما ينطبق على الطائفة المسلمة، ينطبق أيضاً على الطائفة المسيحية أيضاً، فالوصف الذي وصل إلينا للكنائس أشار إلى فقر هذه الأبنية بالعناصر الفنية والمعمارية، وما نعرفه عنها الآن هي أعمال التجديد وإعادة الإعمار التي شهدتها خلال الثلث الثاني وما تلاه من القرن التاسع عشر. وتم منتصف القرن التاسع عشر، إحصاء أربع وسبعون بيتا دينيا للطائفة الإسلامية وثلاث للطائفة المسيحية لعشرين ألف من السكان ثلثهم من المسيحيين.



ضريح أبو الهول

الأضرحة

هي أبنية صغيرة جداً في غاية البساطة، أقيمت لتضم رفاة بعض أصحاب القداسة الخاصة، كصحابة الرسول محمد (ص)، أو بعض الشيوخ الورعين، الذين كفلت سيرتهم ونمط حياتهم لهم مكانة خاصة لدى الناس، في عصر اغلقت فيه منابر العلم وعمت الفوضى والجهل أرجائه. في اللغة المحلية اعتادت العامة من الناس ان تطلق على هذا البناء اسم "المقام". ورغم ان ابنيتها أقيمت في البدء كقبور مميزة، لكنها ما لبثت أن تحولت عن وظيفتها الأصلية لتصبح في نظر العامة من الناس، ثم الخاصة منهم أماكن للتبرك وواسطة يلوذون إليها في الشدائد للدعاء والتضرع.

الا أن بعضها في الواقع، لا يحتوي على رفاة الشخص الذي بني المقام من أجله، لثبوت وفاته في مكان آخر، بل يقام الضريح للذكرى، والتبرك، أو لارتباط

المكان بمناسبة خاصة لها علاقة بالشخص الذي أقيم الضريح له، كمقام أبو موسى الأشعري الذي توفي في الكوفة. ومقام نور الدين الشهيد المتوفي في دمشق.

كمنشأة معمارية، لا يتعدى بناء الضريح في مدينة حمص الغرفة الواحدة. وأحيانا غرفتين، واحدة تضم قبر المتوفي، والثانية تخصص لتدريس الدين، أو إقامة الخادم أو المشرف عليه، وغالبا يزود بباحة سماوية تتقدم البناء، وتؤمن الانتقال التدريجي للداخلين اليه من العام إلى الخاص. أي من الطريق المجاور حيث الحياة الدنيوية بمباهجها الزائلة، وخيباتها المتكررة، إلى المقدس الأبدي، حيث السعي المحفوف بالآلام إلى الأمل، والرجاء المرتجى الذي يؤمل ان لا يخيب طالبه، فهذه الخطوات القليلة هي التهيئة النفسية التي يحتاجها الزائر ليكتسب راحة نفسية ويستشعر قداسة المكان، التي قد تصل حد الرهبة أحيانا، وبالتالي الانبهار الروحي الكامل بالمكان المقصود، ثم طلب الشفاعة في شفاء المريض، أو دفع البؤس، أو طلب الرزق بالأبناء الذكور لمن لم تلد سوى الإناث، أو رفع مظلمة حاكم جائر، وغيرها من المصاعب التي كانت تواجه المرء في حياته آن ذاك، فتلجأ العامة من الناس إلى هذه الأماكن بالعلن، والخاصة منها سرا بدافع الخجل الاجتماعي، في عصر حددت ثقافته بأطر بدائية وساذجة.

ونادرا ما يخلو بناء الضريح من وجود القبة، هذا الشكل المعماري ذي الدلالات الروحية البعيدة، فالقبة تسمو نحو الأفق، وتستدير كاستدارة السماء كما تصورها الشرقي، فتضيف للمقدس الدنيوي، أي المكان، بعدا روحيا يمنح الزائر المزيد من الارتقاء الروحي، وبالتالي المزيد من الشعور بالتوحد بالله الخالق، وبصاحب المقام المطلوب منه تقديم شفاعته لهؤلاء البؤساء من الناس، الذين أغلقت أمام رجائهم منافذ الحياة، فشكلت لهم طقوس الدعاء تلك منفذ لأمل كثيرا ما انتهى بالخيبة وعدم تحقق الأمنيات.

وتزين الزوايا الموصلة للقباب بالحنيات الركنية وبعض المقرنصات البسيطة كحل هندسي يهيئ الانتقال من الشكل المربع للغرفة إلى الدائري، ولإكسابها لمسة جمالية تريح الناظر إليها، إضافة إلى رقبة اسطوانية تحيط بالقبة، تزود بنوافذ تسمح بدخول نور النهار لإضاءة الغرفة وكذلك تؤمن عملية الاتصال بالسماء المرئية من أسفل القبة حيث يسجى الضريح أو رمزه، أي هيكل القبر للشخص المنشود.

و لم تخلو الأضرحة في حمص من القبة، باستثناء مقام أبو الهول، في حي بستان الديوان، الذي سقف بعقد متصالب، هذا المقام اكتسحت فسحة الدار التي تتقدمه أثناء توسعة الطريق المجاور له، من قبل بلدية حمص عام 1926، ثم نظفت حجارته ورمم بتمويل من سكان الحي، وبإشراف مهندسي الآثار وأضيفت له مئذنة مثمنة حديثة (الصورة في الأعلى).

هذا، و لم يقتصر بناء المقامات في حمص على الرجال فقط، بل شمل النساء أيضاً رغم الطابع المحافظ لمجتمع المدينة الذي أبعد المرأة عن مجريات الحياة العامة، كمقام "رابعة العدوية" في منطقة حي بني السباعي. هذه المرأة التي تزوجت نور الدين الزنكي أثناء إقامته في حمص، وقد شفع لها تقاها وورعها الشديدين، كذلك أعمالها الخيرية الكثيرة، إضافة إلى زواجها الموفق هذا، بأن يشيد لها مقام خاص بها بعد وفاتها، ألحقت به غرف للتدريس الديني، بناء على وصيتها.

كما أقيمت أضرحة للحكام الصالحين، الذين قدّموا للمدينة خدمات جلى، كنور الدين الزنكي الشهيد، رغم وفاته في دمشق، وهو ضريح متواضع لدرجة مذهلة، ولا يمكن للناظر اليه أن يتصور للوهلة الأولى أنه لرجل كهذا، لعب دوراً مهماً في تاريخ المدينة، وساهم في إعادة اعمارها بعد الكوارث التي حلت بها، خاصة بناء جامعها الكبير الذي سمي باسمه منذ ذلك الحين. ويقع الضريح الآن ضمن محل تجاري صغير في شارع عمر الأتاسي ولا تزيد مساحة المكان عن العشرة أمتار مربعة يتكبد قاصده الكثير من عناء البحث حتى يعثر عليه. أيضاً ضريح الملك المجاهد الذي توفي في حمص بعد أربعين عاما من الحكم قدم خلالها خدمات جلى للمدينة، من بناء مساجد ومدارس، وقد توجت أعماله مشروع السري الكبير والوحيد آن ذاك وهو مشروع الساقية المجاهديه التي أقيمت عليها بعض النواعير خارج نطاق أسوار المدينة القديمة لرفع المياه وتوزيعها على الأراضي البعيدة عن البساتين المروية ما ساهم في زيادة مساحة الأراضي التي تزرع بالخضار والفواكه، وغيرت المنظر العام للمدينة من الخارج بمنحه الكثير من الحيوية والجمال.

ونظرا لأهمية هذا الحاكم، ولكون مقامه لا يزال محافظا على عناصر هذا النوع من الأبنية إلى حد ما، إضافة للأهمية التاريخية لهذا الضريح في المدينة قمت باختياره كنموذج للدراسة. رغم أنه كمنشأة معمارية لا يخرج عن نطاق الأبنية

البسيطة، والمتقشفة، كما لا يتناسب ومقام هذا الرجل وأياديه البيضاء على المدينة، لكنه بالواقع صورة عن حالتها الاقتصادية في تلك الحقبة من التاريخ التي لم تضف شيئاً جديدا للعمارة الإسلامية.

ضريح الملك المجاهد

لا يمكن اعتباره نموذجا مثاليا للأضرحة الموجودة في المدينة فقد طالت يد التحديث جزء حيويا منه، يشمل البوابة الرئيسية، والمئذنة المقامة عليها، وكذلك الفناء الذي يتقدمه. أما غرفة الضريح فما زالت على حالها باستثناء طلاء الجدران بطريقة حديثة، واستبدال الخشبيات الأصلية بأخرى معاصرة. لكن الأهمية الخاصة لهذا الحاكم، وأياديه البيضاء على مدينة حمص كانت حافزي لمنحه بعض الخصوصية التي يستحقها.

يتألف المقام من ثلاثة أجزاء هي، الباب الرئيس مع المئذنة، الفناء ثم غرفة الضريح. وقد جددت البوابة مع المئذنة، كما أضيفت عناصر جديدة على الفناء من قبل رجل من آل الرفاعي احدى العائلات العريقة في حمص، عام 1398 هجرية. هو صادق بن سليمان الرفاعي. كما ورد في لوح التجديد على واجهة البناء.

البوابة

تتألف من باب مفتوح ضمن إيوان منخفض، واجهته قوسا مدببة، ترتفع أعلى نقطه فيه 170 سم، وعلى جانبيه مكسلتين من حجر البازلت، على عادة العمائر الإسلامية، الا أن مستوى الشارع المجاور ارتفع خلال الزمن فغار هذين العنصرين في الأرض ولا يظهر منهم الآن سوى بضع سنتيمترات بحيث فقدتا فاعلية وظيفتهم التي تم بنائهم من أجللها، فالمكاسل، ليست سوى مقاعد يستريح عليها المسنون أو المرضى قبل الدخول إلى مكان العبادة. (صورة رقم 2 و3)

وعلى جانبي الإيوان ينتصب عمودين بازلتيين على قاعدة مرتفعة تتضمن زخارف بسيطة طرازها أحدث من تاريخ المقام، ما يشير إلى أنهما أضيفا للبناء فيما بعد، وتعلو لوحة التجديد قوس الإيوان وقد سطر عليها:

بسم الله الرحمن الرحيم

انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر

هذا مسجد مقام الملك المجاهد محمد بن شيركوه

قد قام بترميمه الحاج سليمان بن محمد صادق الرفاعي سنة 1398

وهو تاريخ هجري.

ونلاحظ من الكتابة ورود اسم الملك المجاهد "محمد بن شيركوه" وهو خطأ صححه الأستاذ نعيم الزهراوي بـ "شيركوه بن محمد".

زودت البوابة بمئذنة مربعة المسقط ضخمة البناء على عادة العمائر الدينية في حمص، زينت ثلاث من واجهاها بشكل زخرفي مفرغ يتألف من زاوية يليها قوس، صنع من أربع الواح من البازلت، الواجهة الجنوبية فتح فيها باب للمؤذن. تعلو المئذنة شرفات تنتهي إلى قبة رأسها مدبب بنيت فوق رقبة زينت بثمان كوى للإنارة، وعلى رأس القبة زرعت شوكة من ثلاث سنان.

المئذنة بكاملها تم تفكيكها وأعيد بنائها أثناء تجديد البوابة، لكن المجدد حافظ على اسلوب عمارها، واعاد عناصر الزينة الرئيسة فيها. (صورة رقم 3).

الفناء

عبارة عن ممر طويل يوصل البوابة بغرفة المقام ضمن فراغ ودرجات ترتقي بالداخل حتى توصله غرفة الضريح، هذا الفناء فرش فيما بعد ببلاط حديث وزود بميضأة ومرحاض حديث، ومياه جارية. وتجاور الضريح من الجانبين أبنية حديثة.

المقام

يدخل إليه عبر باب حديث صنع من الحديد، يتألف المقام من غرفة واحدة مربعة الشكل (7×7م) سُقفت بقبة نصف كروية تستند على رقبة مثمنة الأضلاع زود الضلع الجنوبي منها بنافذة، وكذلك الضلعين الشرقي والشمالي زود كل منهما بكوتين للإنارة، تسمح هذه الكوى بتدفق نور الشمس نحو الداخل، ورؤية السماء المضيئة، الأضلع الأربعة الباقية وهي تعلو زوايا الغرفة تم بناؤها كحنيات

ركنية، وأعتقد أن المعماري أراد بناء الحنيات الركنية لكن دون أن يرى أي نموذج لها، فالرجل على ما أعتقد لم يسافر خارج المدينة التي يقيم فيها، ففي ذلك التاريخ كانت الفنون الإسلامية قد قطعت شوطا واسعا في العمارة، وأصبح لها نظمها ونظرياتها الخاصة بها. بينما نواجَه هنا برداءة التنفيذ فالحنية الركنية ارتكزت على رقبة القبة، وليس على زاوية المربع لتؤمن الانتقال إلى الشكل الدائري بسلاسة، ما أدى لظهور زوايا الغرفة بشكل لا يتناسب مع استدارة القبة في الأعلى. الضلع الجنوبي لغرفة الضريح زود بمحراب أعلاه قوسا مدببة، يشير إلى وجهة القبلة تسهيلا لمن يود تأدية الصلاة في المكان، أو الاتجاه نحو القبلة لدى الدعاء والاستنجاد بالله رغبة في رفع المظلمات والضيم.

أما ضريح المتوفي فيتوسط الغرفة، أسفل القبة، وهو قبر بسيط جلل بقماش أخضر اللون.

الجوامع والمساجد

أحصى الأستاذ نعيم زهراوي في كتابه "أسر حمص وأماكن العبادة" الجزء الثاني، واحد وثلاثون جامعا وسبعة عشر مسجدا، سأورد أسماءها كما يلي:

الجوامع	المساجد
جامع أبي لبادة	مسجد الشلبي
جامع الزاوية	مسجد البصراوي
جامع الأربعين	مسجد البقاعي
جامع دحية الكلبي	مسجد القدم
جامع القاسمي	مسجد قواس النبي
جامع التوبة	
جامع القصير	
جامع عبد الله بن مسعود	
جامع أبي بكر الصديق	
جامع الصوفي	
جامع التلة	

المنطقة الثانية - باب السباع -

الجوامع	المساجد
جامع الشيخ عبد الله	مسجد الشيخ برق
جامع الزعفراني	
جامع سعد بن أبي وقاص	
جامع مصطفى الحسيني التركماني	
جامع النخلة العمري	

المنطقة الثالثة - حي بني السباعي -

الجوامع	المساجد
جامع البازرباشي	مسجد الدمل
جامع ذي الكلاع الحميري	
جامع الشيخ كامل	
جامع العنابة	

المنطقة الرابعة - باب الدريب -

جامع الأبرار	مسجد الشيخ نبهان
جامع الحنابلة	
جامع الشيخ مسعود	
جامع العصياتي	
جامع كعب الأحبار	

المنطقة الخامسة - جمال الدين -

جامع الفضائل	مسجد المعدس

المنطقة السادسة - الفاخورة -

1- الجامع النوري الكبير	مسجد الخضر الداخلي
2- جامع عمر الأوزاعي	مسجد الحسنين

المنطقة السابعة - باب تدمر -

جامع الشيخ قاسم	مسجد الصحن
جامع السراج	مسجد الشيخ معدان
جامع أبـــي ذر الغفاري	مسجد الشيخ موسى زهراوي
	مسجد الشيخ ناصر
	مسجد عكاشة
	مسجد الشيخ عينين

لدى مراجعة القائمتين نلاحظ التمييز بين الجامع كمنشأة والمسجد، فـالأول بناء يتسع لعدد كبير من المصلين، وله مواصفات معمارية تتضمن الحرم والـرواق إضافة إلى الميضأة والفناء، يقوم على خدمته عدد من الناس، ويخصص لـه مـؤذن وشيخ يؤم الصلاة، ما يسمح بإقامة صلاة الجمعة فيه، بينما يقتصر المسجد علـى بناء صغير لا يتعدى أحياناً الغرفة الواحدة يتقدمها فناء صغير، يؤمه عدد محدود من المصلين ولا تقام فيه صلاة الجمعة.



جامع البازرباشي

لم يأت اختياري لهذا المسجد عرضا، بل كان نتيجة ملاحظتي وجود عناصر فنية، ومعمارية لم تتوفر في غيره من مساجد المدينة، يمكن ايجازها بما يلي:

1- اختلاف مخططه عن المخطط العام الذي اتبع لدى بناء المساجد الأخرى في مدينة حمص، مع المحافظة على العناصر الرئيسة، لكنه اختلف عنها بأسلوب عمارته.

2- غناه بالعناصر الزخرفية - رغم بساطتها، أو بالأحرى فقرها، مقارنة مع المساجد الأخرى المتقشفة للمدينة - كالزخارف الجصية، الصنجات المزررة، ومنبره الهام.

3- أخيرا، وهو الأهم الجدل الذي حصل حول تأريخه، فمن أرجعه للعهد المملوكي، ومن أرَّخه بالعصر العثماني.

المخطط العام للمسجد وتأريخه

لو عدنا إلى كتاب" العمارة العربية الإسلامية" للدكتور عبد القادر الريحاوي. لوجدنا أنه ذكر في الصفحة \159\ ضمن دراسته للعمائر المملوكية في الشام ما يلي:

"تصميم المباني بشكل عام يتألف من باب مفتوح ضمن إيوان يليه دهليز يفضي إلى صحن صغير تحيط به أواوين ونجد في أحيان نادرة أروقة على أعمدة" ثم يكمل في الصفحة \162\ "والقباب كشكل من أشكال التغطية يكاد لا يخلو منها أي من المباني سواء كان مسجدا أو مدرسة أم حماما أم قصرا" وعن المآذن يقول "ظهرت المآذن في العهد المملوكي متعددة الأشكال منها المربع والمضلع...".

ما سبق يضعنا أمام علامة استفهام، فيما لو قارناه مع مخطط جامع البازرباشي، الذي يتألف من باب خارجي بني ضمن أيوان يليه دهليز يفضي إلى صحن الجامع. وإلى يمين المدخل، على الضلع الشرقي للفناء نجد جناح مؤلف من طابقين وغرفة كبيرة أكثر اتساعا من سابقتيها يفتح بابها على الجنوب. على الضلع الشمالي رواق مؤلف من أربعة أقواس غير متناظرة، تقوم على دعائم قوية. الضلع الغربي يشكل قسمه الشمالي سور المسجد الخارجي، اما قسمه الجنوبي فقد ألحقت فيه غرفة سقفت بقبة. القسم الجنوبي منه بالتأكيد خصص بكامله للحرم. أما المئذنة فهي محدثة، بل مشوهة، وتوضح الصور القديمة للمئذنة على أنها مثمنة المسقط. (صورة رقم 5).

ما سبق يشير إلى وجود كافة عناصر العمارة المملوكية في جامع البازرباشي نلحظ منها ما يلي: •

- الباب المشيد ضمن أيوان.
- الدهليز الذي يلي الباب الرئيس.
- الرواق.
- المئذنة المثمنة المسقط.

أما القبة فلها في جزء آخر من البحث حديث آخر.

يرشدنا هذا إلى أن مخطط الجامع مملوكياً من حيث احتوائه على العناصر السابقة، إضافة إلى عناصر الزينة التي انتشرت في العهد المملوكي، كتعاقب اللونين الأبيض

والأسود في عمارة جزء من الواجهات، والصنجات المزررة التي بنيت منها الأقـواس على المدخل الخارجي وباب الحرم، ما أدى بالنتيجة إلى تضارب الأقوال حول تأريخه، حيث أرخه الأستاذ ماجد موصلي بالعصر المملوكي مع الإشارة إلى أن المدخل جـدد في العصر العثماني مستندا إلى العناصر التي ذكرتها سابقا، دون أن يورد اسم المصـدر الذي استقى منه معلوماته، بينما أرجعه الأستاذ نعيم الزهراوي إلى العصـر العثمـاني، مستندا إلى لوحة التأسيس العائدة له، وكذلك وثيقة "وقفية آل الزهراوي".

هنا سأبدأ بعملية مقارنة بسيطة للعناصر الفنية والمعمارية المتوفرة ضمن أجزاء البناء.

أقيم أعلى الباب الرئيس للمسجد قوسا بني بصنجات مزررة تعاقـب فيهـا اللونين الأبيض والأسود، نجد مثيل لها أعلى باب الحرم. (صورة رقم 5 و6).

- إحضار الحجارة المستخدمة في بناء البوابة، وواجهة الحرم من مصدر واحـد، كما أنها متشابه من حيث الحجم وأسلوب القطع.
- أحيطت الكتابة التي تعلو الباب الرئيس بشريط زخرفي من الجص نجد مثيل له أعلى باب الحرم، وهما متشابهان من حيث التنفيذ والمواد المستخدمة، إضـافة إلى أن مساحة طول وعرض كل منهما تعطي نتيجة واحدة، وكذلك أسلوب توزيع العناصر الزخرفية لكل منهما، كما نلاحظ العلاقة القوية في مواضـيع الزخرفة، وإن كانت هندسية على الباب الرئيس ونباتية على الحـرم، الا أن الزهرة الثمانية بتلات ليست بعيدة عن النجمات، والاختلاف القـائم هـو للتنويع فقط، ويمكننا الاستنتاج أن يدا واحدة هي التي صنعت الشـريطين، كما أن نظرة فاحصة إلى جسم البناء تظهر أنه كتلة معمارية واحدة، فهـو خال من أية آثار قد تشير إلى مراحل معمارية متعددة، وهذا ينفي أن يكـون جدد في فترة لاحقة لبناء الجامع، كما ذكر الأستاذ الموصلي.

ويؤكد قولي هذا الكتابة المنقوشة على الباب الرئيس والمؤرخة بعام \1153\ هجرية والكتابة التي تعلو الحرم وقد أُرخت بعام \1154\ هجرية والفـرق عـام واحد ليس الا الفترة التي استغرقها البناء في عمله.

أما بقية أجزاء المبنى فان تكسُّر الكلسة عن جزء من جدار الـرواق - وهـو الجزء الغربـي منه، وقد حوِّل إلى غرفة فيما بعد - تُظهـر أن الحجـارة الـتي

استخدمت في بنائه متماثلة مع حجارة واجهة الحرم والبوابة، إضافة إلى أن أسلوب بناء العقود يماثل أسلوب تقبيب الدهليز، ما يدفعني للقول على أن المسجد بكامله بني دفعة واحدة، وبأيد واحدة. إضافة إلى أن وجود ضريح باني الجامع وابنته أسفل الرواق وهما مؤرخان بعام \1174\ هجرية يدعم قولي بالبرهان الصحيح.

وهنا أحب أن أعقّب على مقالة الدكتور سليم عادل عبد الحق في مجلة الحوليات الأثرية العدد العاشر حيث ورد فيه ضمن حديثه عن آثار حمص " جامع البازرباشي، وبناؤه بسيط وعلى بابه كتابة نسخية تذكر أن بناءه كان عام \1053\ هجرية وعلى باب حرمه كتابة أخرى تجعل هذا البناء عام \1054\ هجرية". وهذا خطأ واضح في قراءة التاريخ، حيث أسقطت كلمة مئة من كلا التاريخين، ويعود هذا في ظني إلى قراءة سريعة للوحة التأسيس، وعدم التمكن من قراءة الكتابة بشكل صحيح.

كلمة أخيرة لقد بني هذا الجامع وفق المخطط المملوكي لعمارة المساجد ولكن في العصر العثماني، فلم يكن غريبا عن العمارة الإسلامية أن يبنى بناء في عصر بينما مخططه يعود إلى عصر سابق، أذكر على سبيل المثال جامع يلبغا في دمشق الذي بني وفق المخطط الأموي التقليدي – حرم في الجهة الجنوبية وسطه مجاز قاطع وثلاث أروقة في الجهات الثلاث الباقية تحتوي على أبواب خارجية توصل المصلين إلى أحيائهم بيسر وسهولة – بينما شيد البناء في العصر المملوكي.

هذا ومن المعروف أن فن العمارة العثمانية قد استخدم الكثير من عناصر العمارة السابقة له، ثم طبعها بطابعه الخاص.

تسمية الجامع

بازرباشي، لقب تركي يعني "شيخ التجار"، وقد أطلق على عائلة حمصية قديمة ذكرت في مخطوط يعود تاريخها لعام/1024/ هجرية، تسمى مخطوط آل الزهراوي. وهذا يطلق تساؤل فيما اذا كان سمي نسبة لهذه العائلة، التي سبق وجودها لهذا الجامع بعدة قرون، أم لوجوده مقابل ساحة البازار، أو ما سمي بسوق البازرباشي، علاقة ما. فالكتابة التأسيسية تذكر أن بانيه هو "أحمد بن الحاج عبد اللطيف" ولا تضيف شيء على هذا، لكن البحث أوصل إلى ان أسم بانيه "أحمد عبد اللطيف بن خانقاه"، وهذا أوصلنا إلى آل الخانقاه كفرع من عائلة الزهراوي،

ولا علاقة لها بعائلة البازرباشي، وهذا يقدم دليلا على أن تسمية الجامع كانت نسبة للمكان وليست لعائلة بعينها.

وصف الجامع

يدخل إليه عبر باب بني ضمن محراب أعلاه قوسا مدببة، يتعاقب على واجهته اللونين الأبيض والأسود، وعلى الجانبين مكسلتين من البازلت، تعلو الباب قوسا من صنجات مزررة تعلوها لوحة التأسيس ويحيط بالجميع شريط من الزخارف الهندسية النافرة نفذت بمادة الجص.

يفضي الباب إلى دهليز سقف بعقد طولي يؤدي إلى صحن الجامع، والصحن يتألف من قسمين:

الأول – قسم مستطيل يصعد إليه بدرجتين من كل جهة، ويتصل بجزئه الشمالي برواق الجامع، في الجهة الجنوبية وضع محراب صيفي يتألف من كتلة واحدة من الحجر الكلسي جوّف داخلها، وزينت أطرافه بخطوط نافرة تنتهي بأشكال هندسية على الأسفل.

الثاني – رواق من مستطيل مفتوح يحيط بالصحن السابق من جهاته الثلاث، الشرقية، الجنوبية، والغربية.

الجناح الشرقي

ويشكل كلا مستقلا عن الجامع، كما يختلف بإسلوب عمارته أيضاً، ويقع على يمين الداخل إلى الجامع، بالقرب من المدخل الرئيس، بني من البازلت، ويتألف من طابقين، الأرضي ثلاث غرف منفصلة، تشرف على الفناء بباب خاص لكل منها ونافذة للإنارة، أما التسقيف فبعقد طولي واحد، أي تم بناء العقد ثم فصلت الغرف عن بعضها بالجدران، وعلى الجدار الشمالي المحاذي غرفة واسعة مربعة الشكل جدرانها مرتفعة، سقفت بعقد متقاطع، تشرف على الصحن بباب للدخول ونافذة، أضيف لها لاحقاً بلاط حديث وميضأة. هذا وقد زوّد أعلى الأبواب قوساً يتعاقب فيه اللونين الأبيض والأسود، أما النوافذ فحددت بساكف بازلتي لكل منها دون أية إضافات.

الدور الثاني، يتألف من رواق يشرف على الصحن بقوسين مدببين غير متقني الصنعه، ومن الرواق درج يوصل إلى سطح البناء، ثم إلى المئذنة. لكن الرواق أغلق فيما بعد وحول إلى غرفة واسعة كان يسكنها أحد الدراويش. خلف هذا الجناح تقع مراحيض الجامع ويتم الدخول إليها عبر باب خاص خارج البناء.

الرواق

يقع على الجهة الشمالية من الصحن، تتألف واجهته من أربعة أقواس مدببة تستند على دعائم حجرية، القوس الأخيرة أصغر حجما وتنخفض أرضيتها عن أرضية الرواق، حفرت فيها بئر تزود الجامع بحاجته من الماء، وقد أغلق القوس بجدار حديث، وزود بخزان حديث لحفظ المياه، ثم تحول إلى مستودع للأشياء الغير مرغوب فيها بعد تزويد الجامع بنظام مياه حديثة. هذا على الزاوية الغربية، أما الزاوية الشرقية منه فتتضمن ثلاث قبور إحداها لباني الجامع، وهذا تقليد عرف في العمارة الإسلامية، بأن يدفن صاحب الجامع في مكان لا يعيق الصلاة في جامعه، وإن كان لم يعمم بالمطلق. الضريح الثاني لابنته المتوفاة بعده، الثالث فقدت شاهدته فلم يعرف صاحبه، ولا درجة قرابته منهما. ثم أغلق المكان بباب خشبية صغيرة تشير زخرفتها وقدمها إلى أنها أصلية و لم تستبدل فيما بعد.

الحرم

يشغل كامل الجهة الجنوبية من البناء، ويتألف من قاعة واسعة مستطيلة الشكل سقفت لدى بناء الجامع بعقد متقاطع، ما لبث أن هدم بحجة التحديث واستبدل السقف بآخر اسمنتي. وفتحت في الجدران نوافذ بعضها يطل على الخارج والآخر على صحن الجامع.

بني جدار الحرم بحجر البازلت ذو القطع الصغير، وسطه باب الدخول وقد أحيط بمستطيل من الأبلق على غرار عمارة مدينة حماه، مدماكين من حجر الكلس وأخر من البازلت، وسطه باب زيّن أعلاه بقوس من صنجات مزررة، يتعاقب فيها الأبيض الرخامي مع الأسود البازلتي تعلوها حجر التأسيس التي أرَّخت بناء الحرم،

ثم شريط من الزخرفة النباتية نفذ بمادة الجص. وضمن الجدار فتحت نافذتين وقمريتين أعلاهما قوسا مدببة. (صورة رقم 6)

المنبر

يعتبر واحدا من أجمل محاريب مساجد المدينة، صنع من كتل حجرية استخدم الرخام المجزع في زخرفتها بشكل وافر، سواء على واجهة المنبر أو على القبة وكذلك أطرافه. (صورة رقم 7)

المحراب

يقع إلى يسار المنبر، تجويف دائري ضمن الجدار، أحيط بإطار من الحجارة البازلتية والكلسية، بجانبيهما عمودان من الرخام يعلو كل منهما تاج بسيط. والمحراب خال من عناصر الزينة والزخارف.

المئذنة

كان لدى بنائه المسجد الوحيد الذي بنيت له مئذنة مضلعة، مسقطها مثمن، وزينت بإطار من المقرنصات، تليها شرفة مفتوحة سقفت بسقف من الخشب والتوتياء، ثم قبة صغيرة. وما لبثت أن تصدعت المئذنة لضعف اسس البناء ما استدعى هدمها وإقامة مئذنة من مواد حديثة أخف وزنا من الحجر. ثم هدم الجناح الشرقي بكامله من قبل دائرة الآثار بغاية إعادة إعماره، دون أن يكتمل المشروع...

السور الغربي مع البناء المجاور

القسم الأكبر منه يشكل سور البناء فتح في آخره من الجنوب باب يفضي إلى غرفة مستطيلة سقفت بقبة، وبداخلها قبر، يتقدمها عقد متقاطع يوصلها ببدنة الجامع. لكن هذا الجزء من البناء يتبع بالأصل لبناء آخر مجاور، فقد عمد الرجل الذي قام ببناء الجامع ببناء منزل خاص يتصل بالجدار الغربي ويتألف من إيوان واسع يتوسط غرفتين مجاورتين له.

النقوش الكتابية

يتضمن البناء أكثر من نقش كتابي موزع هنا وهناك، تتضمن كتابات منقوشة وتواريخ تتضمن معلومات حول تاريخ الجامع، لكن وباعتبار أن عمارة البناء تمت في فترة شهدت ركودا في العمارة، نجد أن النقوش المكتوبة جاءت أيضاً رديئة الخط، كما تعرض بعضها للطمس، بل سرق جزء كبير من أحد الألواح المنقوشة عن ضريح باني الجامع.

لوحة التأسيس ونقش عليها أربعة أسطر بخط الثلث تقول:

1- بسم الله الرحمن الرحيم اللهم انك قلت وقولك الحق في كتابك المنزل على نبيك المرسل.
2- ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى اهلها وأنت خير مأمون، وأنا أودعت في هذا المكان.
3- شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله نطلبها منك حين حاجتي إليها وأنا الفقير.
4- إلى الله تعالى أحمد بن الحاج عبد اللطيف غفر الله لهما وذلك في غرة ذي الحجة سنة ألف ومايه وثلاث وخمسين.

الكتابة الثانية على البناء المجاور وتماثل الكتابة السابقة مع بعض الاختلاف سيلاحظه القارئ، أولها توزيع الأسطر إذ تتضمن ثلاث عشرة سطرا، وتغير بعض الكلمات، كما لحقها بعض الضرر نتيجة إحاطتها بشريط اسمنتي حديث، وقد نقش على اللوحة:

1- بسم الله الرحمنْ الوحيم
2- اللهم إنك قلت وقولك الحق
3- في كتابك المنزل على نبيك
4- المرسل ان الله يأمركم أن تؤدوا
5- الأمانات إلى أهلها وأنت خير مأمون
6- أنا أودعت في هذا المكان
7- شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا

8- رسول الله. أطلبها منك حين

9- حاجتي إليها وأنا الفقير إليه

10- تعالى أحمد بن الحاج عبد

11- اللطيف غفر الله له

12- ولوالديه ولجميع المسلم..

13- ... الصالحين سنة 1158

ملاحظة

كلمة اللطيف في السطر الحادي عشر غير واضحة، كما حذفت الياء والنون من كلمة المسلمين.

الكتابة على واجهة الحرم نقشت بالجص، ما أدى لتلف أجزاء منها لكن الخطاط السيد عدنان الشيخ عثمان تتبَّعها بإصبعه عن كثب ما مكنه من قراءتها وتوصل بهذا إلى أنها تتألف من بيتين من الشعر:

بَناني أحمد من بعد ألف

وأربعة وخمسين ومايه

جزاه الله عني كل خير

بلا زمن يحد ولا نهاية

وأسفلها خط صغير نقش عليه عبارة:

الله حق ما فيه شك رب الخلق

الكتابات المنقوشة على الأضرحة

ضمن رواق الجامع توجد ثلاث أضرحة تعود لباني الجامع، وابنته، أما الثالث فلم يعرف صاحبه، أو صاحبته بسبب سرقة شاهدة الضريح، كما سرقت إحدى الشاهدتين العائدة لضريح صاحب الجامع.

تتألف الكتابة على ضريح ابنة صاحب الجامع من نصين كتبا بخط الثلث أيضاً، لكن الخطاط أهمل الكثير من نقاط الأحرف، كما أسقط أحياناً حرفاً

كاملاً، وهذا يدل على عدم تمكنه من الكتابة بشكل جيد. تتألف الكتابة كما ذكرت من نصين هما على التوالي:

1- بسم الله الرحمن الرحيم
2- كانت نزيلة هذا الرمس جوهرة
3- يتيمة صاغها المولى من النطف
4- عزت فلم تدرك... الأفكار قيمتها
5- فردَّها غيرة منه إلى الصدف
6- محفوفة بالرضى انا نؤرخها
7- أيها الكريم الجميل المستعان ففي
8- سنة 1173

الشاهدة الثانية

1- بسم الله الرحمن الرحيم
2- جليلة القدر في ذا الرمس ساكنة
3- زكية الأصل مولاها تولاها
4- يوم الخميس تحت الثرى نزلت
5- حذا أبيها ففي الجنات مثواها
6- خليل عنها بذي التاريخ طيبة
7- سعدية المجد في الفردوس مأواها
8- سنة 1173

أشير هنا إلى أن كافة التواريخ المذكورة كانت تتبع التقويم الهجري.



دير مار إليان

الكنائس

لدى الحديث عن الكنائس، لا بد لنا من العودة عميقا في التاريخ، فسوريا المسيحية انقلبت إلى الإسلام لدى دخول العرب المسلمين إلى الشام، وأصبح المسيحيون قلة - مع إضافة أعداد العرب القادمين من الجزيرة العربية إلى قائمة السكان - واقتُسمت أكبر كنائسهم وحولت أجزاء واسعة منها إلى مساجد تقام فيها الصلوات الخمس. وبعد أن كان المسيحيون أصحاب البلاد، بأصولهم الآرامية والكنعانية، تراجعوا ليصبحوا في المقام الثاني، سواء من حيث العدد، أو الحقوق، ورغم أن كتب التاريخ ذكرت مساندهم للفاتحين الجدد، وأن أبواب بعض المدن ما كانت ستفتح بسهولة لولا هذا الدعم، بعد أن سئموا من تعالي قادة الروم البيزنطيين ورعاياها عليهم، إلا أن أحقيتهم كمواطنين أصليين لم يتم، وفرضت الجزية عليهم. ورغم أن الجزية نظام ضريبي قديم عرف زمن الرومان، وفرض على كل فرد في الإمبراطورية من الرابعة عشرة حتى الستين من العمر، وكان مقدارها ستة عشر درهما في القرن الأول ميلادي، ثم ارتفعت إلى عشرين درهما في القرن الثاني، وكانت تسمى "ضريبة الرؤوس" كما عرفت أيضاً في الفترة البيزنطية

على غير الرومان من الرعايا، وكذلك لدى الفرس. إلا أن فرضها على أسس دينية إثر الفتح الإسلامي أسس لشرخ المجتمع السوري، وخلق حالة من التباين الفكري بين الناس، فالمسلمون الذين نجوا من دفع الضريبة اعتبروها عادلة، بينما اعتبرها المسيحيون ظلماً لحق بهم، وإنقاصا من حقوقهم كمواطنين، أما الحكام فكانت بالنسبة لهم طريقة مثلى لجذب الناس إلى الدين الجديد.

وهكذا تراجعت الكنيسة في حمص، لا من حيث الترتيب الكنسي الديني، ولكن من حيث العمارة والبناء، فلم تشهد المدينة بناء كنائس جديدة، بل منيت بنكبات أدت إلى تدمير أبنية كنائسها الجميلة كان منها:

- الثورة التي نشبت على عامل الخليفة المتوكل في المدينة عام (855م) ورغم أن المسلمون والمسيحيون اشتركوا بها على السواء، الا أن الخليفة انتقم من المدينة بضراوة، انتهت بتهديم بعض كنائس المدينة باستثناء تلك التي اقتسمها المسلمون مع المسيحيين، وكان المسلمون لا يزالون حتى ذلك التاريخ يؤدون صلواتهم في الجزء الذي اقتسموه من كنيسة يوحنا المعمدان، فالخليفة الغاضب لم يجرؤ على المساس بالأبنية الدينية الإسلامية وهو المسمى خليفة المسلمين، فصب جام غضبه على الطرف الأضعف.
- دخول المدينة في الصراع الحاد الذي نشب بين البيزنطيين والحمدانيين، أمراء حلب، الذين امتدت إمارتهم حتى شملت حمص، فأغار أباطرة روما وأمراؤها لمحاربتهم ووصل بعضهم إلى حمص، ومنهم دوق انطاكية الذي هدم كنيستها على من فيها من السكان الذين لجأوا للاحتماء بها، ثم أشعل النار فيها (1002م). وربما كانت هي الكنيسة التي اقتسمها المسلمون، وقد وصفها المسعوديّ حين زار المدينة خلال القرن العاشر قائلا إنها من عجائب الدنيا في العمارة. علما أن زيارة المسعودي تمت بعد نكبة الخليفة المتوكل.
- أيضا القائد المملوكي الظاهر بيبرس أمر بعد انتهاء حربه مع الفرنجة بهدم كنيسة الأربعين مستندا على وشاية سمع بها ليس إلا، فجاءه كبار رجال العائلات الإسلامية ووجهاؤها يشفعون لديه فيها، فتوقف عن فعلته تلك، لكن الجزء الغربي من الكنيسة كان قد هدم وانتهى الأمر.

- الزلزال الكبير الذي ضرب المدينة عام 1157م، فهدم معظم أبنيتها، وكان آن ذاك الأمير نور الدين الزنكي حاكما على الشام، فعمد إلى شراء بقية العقار العائدة ملكيته لكنيسة يوحنا المعمدان، ثم عمَّر مسجد المدينة الكبير الذي سمي باسمه، فزال كل أثر للكنيسة القديمة.

وهكذا لم يبق من كنائس المدينة الفارهة والجميلة التي بنيت خلال فترة الازدهار الديني المسيحي الذي عاشته حمص شيء. وما عرف من كنائسها بداية القرن التاسع عشر كان ثلاث كنائس صغيرة الحجم، وفقيرة بمواصفاتها المعمارية، شأنها شأن سائر أبنية المدينة سواء الدينية، أو المدنية آن ذاك وهي:

كنيسة أم الزنار	للسريان الأرثوذكس
كنيسة الأربعين شهيد	للروم الأرثوذكس
كنيسة ودير مار إليان	للروم الأرثوذكس

في هذا إشارة إلى وجود طائفتين فقط من الطوائف المسيحية المتعددة في المدينة هما السريان الأرثوذكس، والروم الأرثوذكس، وتشير المصادر إلى وجود أعداد قليلة من طائفة الكاثوليك، لكن أفرادها كانوا لا يصرحون باعتناقهم المسحية على هذا المذهب خشية استياء أقربائهم وأصدقائهم، لهذا لم تبنى كنيسة خاصة بهذه الطائفة قبل عام 1832م حين حدث بعض التحول الفكري في بنية المجتمع المسيحي، وكذلك في مجتمع المدينة ككل - وإن كان نسبيا فقط - ويرجع هذا إلى مظاهر الانفتاح الديني الذي أظهره إبراهيم باشا إبن الحاكم المصري محمد علي باشا، الذي قاد القوات المصرية لدى توسع الأخير في بلاد الشام، وكان قد وظف كاتبا لديه من طائفة الروم الكاثوليك فشجع هذا الكاثوليكيين على الإجهار بمعتقدهم، ومن ثم قدم منزله لإقامة شعائر الصلاة الكاثوليكية به، فأصبح هذا المنزل أول كنيسة للكاثوليك في حمص. وقد تتالى انتشار الطوائف الأخرى في حمص بعد هذا التاريخ كالبروتستانت واليسوعيين.

كنيسة أم الزنار

تعد واحدة من أقدم أماكن العبادة لدى المسيحيين في العالم، إذ يعود تاريخ إنشائها للعام (59م) وفق ما ورد في رقيم حجري اكتشف أثناء عملية البحث عن

زنار السيدة العذراء أسفل مائدة التقديس في مذبح الكنيسة (صورة رقم 8)، وليس غريبا أن يعود وجود الكنيسة للتاريخ المذكور، كون حمص من أوائل المدن التي عرفت المسيحية وآمن بعض أبنائها بالدين الجديد، وكانت طقوس العبادة تتم في الأقبية التي ما زالت موجودة أسفل البناء حاليا، هربا من تعسف السلطة الرومانية الوثنية الذي طال المؤمنين آن ذاك.

لم يصلنا وصف لهذه الكنيسة في بدايات نشأتها، لكن البناء الحالي مقام فوق عدد من الأقبية المتصلة مع بعضها ويعود تاريخها للعهد الروماني والبيزنطي، وتعتبر الأقبية هي الكنيسة الأولى التي كانت تقام فيها الشعائر الدينية، وقد أجريت بها بعض أعمال التنقيب الأثري أسفرت عن اكتشاف سراج وأدوات فخارية تعود للعصر البيزنطي، ولم يعثر فيها على لقى رومانية، وأعيد السبب في هذا إلى استمرار العبادة في هذا المكان ذاته على مدى قرون طويلة، ما يتطلب تنظيف المكان باستمرار، سواء من الأواني التي تتكسر بفعل الاستعمال عن غير قصد، أو استخدام أوان جديدة بين الحين والآخر تتلاءم مع عصرها آن ذاك، ما يستدعي التخلي عن القديم وهكذا، ولو أن المكان أغلق في العصر الروماني ثم أعيد فتحه في العصر الحديث على يد المنقبين، فلا شك أنه كان سيقدم الدليل الذي يؤرخه.

أما البناء الحالي فيعود للعام 1852م حين نقض البناء القديم ثم وسع وجدد في شكله الحالي. ويتألف من قاعة صلاة واسعة تتقدمها أروقة بأقواس متناسقة ترتكز على دعامات حجرية وأعمدة، جميعها من البازلت، وزينت قاعة الصلاة بأخشاب منحوتة وجميلة، ثم برج الجرس أعلى البناء، وألحق بالبناء جناح خاص لإقامة مطران الطائفة وبعض رجال الدين (صورة رقم 9).

دير مار إليان

بني هذا الدير تكريما للقديس "إليان" وهو طبيب من حمص عاش في القرن الثالث الميلادي حين كانت المدينة بمعظمها وثنية، وكان التنكيل بالمؤمنين من المسيحيين على أشده في طول الإمبراطورية الرومانية وعرضها، فقتل الطبيب الشاب في مدينته عقابا له على اعتناقه المسيحية، في السادس من شباط لعام 285م، فاعتبر فيما بعد شهيداً، حين أصبحت المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية،

وغابت أسباب الخوف عن القلوب، اعتبر الطبيب الشهيد من قديسي الكنيسة الأرثوذكسية بحمص، وما زالت تحتفل سنوياً بذكرى استشهاده.

في عام 432م نقلت رفاته من مكان دفنها القديم، حيث أعدم، إلى مكانها الحالي في الدير، ووضعت الرفاة ضمن تابوت رخامي جميل نقش على وجوهه أحد عشر صليبا بارزا تليق بصاحبه، وبني الدير بحيث يضم بداخله الضريح إلى جانب هيكل التقديس.

حتى عام 1843م كان الدير بناء صغيرا ومتواضعا (طول 9م، وعرض5م) ولا يتسع لأكثر من عشرين شخصا، فهدم جزء منه ووسع في العام المذكور مع المحافظة التامة على الهيكل القديم (الصورة في الأعلى)، ثم وفي عام 1969م تقشر جزء من كلسة جدار الهيكل وظهرت رسوم جدارية (فريسك) ما استدعى العمل على إظهار ما تبقى من الرسوم، واستدعي خبير الآثار الكلاسيكية في متحف دمشق الأستاذ بشير زهدي الذي أفاد بأنها تعود للقرن الثاني والثالث عشر ميلادي، فبدأت أعمال تنظيف وترميم هذه الرسوم القيمة، وقد أضيفت لها رسوم أخرى تتوافق مع المكتشفة قام بها مختصان من إيطاليا، استدعيا خصيصا لهذه المهمة (صورة رقم 10 و11).

الفصل السادس

الصناعة والتجارة

لم تعرف بلاد الشام صناعات كبيرة كانت قائمة خلال الفترة التي أتحدث عنها، حين أخذت مدننا القديمة شكلها النهائي، أي منتصف القرن التاسع عشر، وأواخره. وإنما كانت هناك ورش عمل، وحُرف عمل بها السكان كمصدر للرزق، وتلبية للمتطلبات التي تقتضيها الحياة، هذا على صعيد الضرورة القصوى، أما على الصعيد النفسي فكانت هذه الأعمال هي الدائرة التي تحرك ضمنها الإنسان مفسحا المجال لقدراته الخلاقة وطاقاته الكامنة كي تبرز تفوقه بالابتكار والتصميم - رغم ضحالة الإمكانات المتاحة له - أي الخلق، وإيجاد حلول جديدة، وأدوات تطوير يؤكد من خلالها كرامته كإنسان عليه أن يكون فاعلا ومتفوقا ضمن الحيز الذي يقيم فيه. إضافة إلى الرغبة المتأصلة لدى الإنسان في التواصل مع الغير، واكتساب معارف جديدة، وخبرات، وخوض تجارب يؤمنها له العمل بالتجارة في حركتها الدائبة، وآفاقها الواسعة التي تستقطب المغامرين من الناس، والفضوليين التواقين إلى المعرفة والاستكشاف.

وقد أدى انحسار الحركة التعليمية، وانتشار اللصوص وقطاع الطرق دورا كبيرا في الحد من الحركة التجارية، وشكل عائقا أمام تطور الحُرف التي كانت سائدة، لكن توارث المهن في هذا المجال خفف إلى حد كبير من حجم العوائق التي اعترضت استمرارية الأعمال وإن كان تطورها سار في خطى بطيئة، فالمهن تورث ومعها أسرارها التي يجهد أصحابها في الحفاظ عليها، فلا يقدموها إلا لمن لديه الكفاءة المطلوبة، هي تخضع لقانون العرض والطلب، وتتطور مع الزمن وتختلف نماذجها وفق الطرُز السائدة والحاجة الملحة في كل منطقة على حدة. أما حركة التجارة، المحفوفة بالمخاطر، لما قد يعترض المسافرين من عمليات غزو ونهب يفقد البعض حياتهم خلالها أحياناً، فكان لابد من الاتصال ببعض العشائر البدوية التي آلت على نفسها حماية الطرقات العامة ما شكل حلاً آمناً إلى حد ما، وتتم العملية بمرافقة بعض الفرسان من البدو قوافل التجار مرحلة من الطريق - لقاء أجر يتفق

عليه – ثم يتسلم المهمة آخرون، وهكذا حتى تصل القافلة هدفها المنشود. وإن لم يشفع هذا لهم على الدوام، فقد ذكر التاريخ حوادث عدة من السلب والنهب تعرضت لها قوافل التجار، أدى بعضها لخسائر كادت أن تفلس مدنا هامة بالكامل.

لقد أرخى الوضع الاقتصادي السيء بظلاله على كل مفاصل مدينة حمص، بل وعلى ريفها المجاور أيضاً، وكان للصناعة والتجارة نصيبهما الأكبر منه، فحدَّ من تنوع الصناعة، هذا إذا قارناها بمدينتي طرابلس على الساحل وحماه إلى الشمال، اللتان كان وضعهما الاقتصادي أفضل حالا، كما أثر على مستوى المنتجات، جمالها وتنوعها، أما من حيث الجودة فاكتسبت سمعة جيدة، ساعدتها على تسويق ما تنتج، وساهمت في تيسير بيعها. لكن أنواع الصناعات كان محدودا واقتصر على، صناعة الحرير، الصوف، والجلود، والنحاس، مع بعض المشغولات القطنية، ضمن حدود تلبية حاجات السوق المحلية والريف، مع بعض العمليات التجارية الخارجية المحدودة، باستثناء صناعة الحرير التي لبت حاجات الأقاليم القريبة والبعيدة.

صناعة الحرير

تصدَّر الحرير كافة المهن وترأسها، فهو المادة الأكثر نبلاً، والأفضل سمعة بين السلع كافة، رافق الأحلام الوردية للناس التواقين للترف والرفعة، وشكل دلالة على الذوق الرفيع لدى المترفين من الناس. لكنه أيضاً كان جزء من تراث تقليدي في اللباس في معظم مناطق سورية، تعتمره نساء الريف على رؤوسهن، ويدخل في ملابس الرجال أيضاً، لذلك فليس غريبا أن نجد صناعته قد استقطبت العديد من الناس، ورافقت الذوق العام في تطوراته عبر الزمن، ومرت بمراحل واسعة من التبديل والتغيير، وكذلك التعديل، سواء في الجودة، أو الشكل والنقشة أو الألوان متأثرة بالطلب تارة وبذوق الصانع ومهارته بإضافة لمسة خاصة تبرز قدرته على ابتكار الجديد.

وصناعة الحرير من أقدم الصناعات في حمص، ذكرها أبو الفضل العمري لدى زيارته حمص في القرن الرابع عشر ميلادي بل وقارن مستوى وجودة الصناعة فيها مع مدينة الإسكندرية في مصر قائلا "وحمص، تتلو مدينة الإسكندرية في ما يعمل فيها من القماش الفائق على اختلاف الأنواع وحسن الأوضاع"، كما ذكر أوليا جلبي بعد ذلك بثلاث مئة سنة أن حمص تنتج من الحرير المناشف والمناديل والفوط وكذلك الأكياس... وقد منيت هذه الصناعة بانتكاسة فترة من الزمن، ما لبثت أن استعادت دورها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

تمرُّ صناعة الحرير بمراحل متعددة حتى تصل إلى المستهلك بالشكل الذي يعرفه. تربية دودة الحرير - أطلق عليها بالعامية دودة "القز" - هي المرحلة الأولى من الإنتاج، وتتم في مناطق زراعة أشجار التوت، فأوراق هذه الشجرة هي الغذاء الوحيد للديدان المنتجة لهذه الخيوط الثمينة، وقد تركز زراعته بمعظمها في المناطق الجبلية، كسلسلة الجبال الساحلية، ومنطقة جبل الحلو ضمن محافظة حمص وحماه الآن، كذلك في سلسلتي جبال لبنان الساحلية والشرقية، كما تمت تربيته في البساتين المحيطة بالمدينة، لكن بشكل محدود ولا تغطي كميته حاجة السوق المحلية،

وظلت المناطق السابقة الذكر على مدى عقود هي المصدر الرئيس لإنتاج خيوط الحرير، وكان التجار يذهبون إلى مناطق الإنتاج لشراء حاجتهم من الشرانق لاستخراج الخيوط الثمينة منها، وقد احتكرت في حمص كل من عائلتي "سالم" و"السمان" عملية شراء شرانق الحرير واستخراج الخيوط منها، بينما تولى آل الأخرس تبييض الخيوط، أما مراحل الإنتاج فاحتكرت من قبل عائلات توارثت صناعته، وكذلك تولت الإتجار به، كآل "قحوش" "المشلوط" "زيتون" "سرياني" و"الخوري" وآل "دوامة". لقد انتشرت مشاغل الحرير بالقرب من البيوت السكنية في محلتي باب السباع والورشة التي اكتسبت اسمها من كثافة انتشار مشاغل الصناعة وورشها فيها. ويقوم الرجال بكافة مراحل الإنتاج، بل ويورثون الأعمال إلى أبنائهم حتى أصبحت بعض المهن أسما للعائلة تعرف به، وما زالت حتى الآن بعض العائلات تحمل هذه الأسماء كعائلة "الفتال" "المسدي" و"الصباغ". أما اعمال التطريز والتربيد - أي تربيد المناشف - فكانت تقوم بها النساء في البيوت، وهي مهنة تتطلب الكثير من المهارة والصبر، إذ تقوم السيدات بحياكة أطراف الحطة - لباس تقليدي ترتديه المرأة على رأسها في الأرياف - أو العباءة وتدخل خيطان القصب في هذه العملية، ثم تصنف القطع وفق ثرائها بالتطريز.

لقد أنتجت حمص العديد من نماذج الأقمشة، تصدرتها "الحطة" لانتشارها الواسع وكثرة الطلب عليها، وقد اكتسبت الحطات المنتجة في حمص شهرة واسعة جلبت تجارا من مناطق بعيدة عن المدينة كلبنان، فلسطين، أنطاكية، وكذلك الريف المجاور والبعيد أيضاً، وتنوعت هذه النماذج وفق الطرز السائدة في المناطق المطلوبة فيها، حتى تسمت باسم المنطقة المرغوبة فيها، كالحطة السلمونية، نسبة إلى منطقة السلمية، والصدية "صَدد"، العكارية "عكار في لبنان" و"العرسالية" أيضاً منطقة عرسال في جرود لبنان، أما النماذج التي تباع لمدينة أنطاكية فكانت تصنع بناء على طلب مسبق.

إضافة إلى هذا، كانت تصنع أيضاً فوط الحمام وتسمى "الوزرة" والمشالح التي ترتديها العروس فوق فستان زفافها، فلم يكن من اللائق أن تظهر العروس بفستان زفافها أمام الرجال لدى خروجها للذهاب إلى منزل زوجها، فترتدي عباءة مفتوحة من الأمام ومزركشة بقناديل القصب. هذا بعض ما أنتج للنساء.

فيما يتعلق بملابس الرجال، أنتجت الجلاليب البيضاء التي وجدت لها سوقاً مناسبة في مدينة حماه القريبة، وكذلك الزنار الطرابلسي، نسبة لمدينة طرابلس في لبنان، حيث عرف لأول مرة، وكان زنارا عاما يرتديه معظم الرجال - بلفه حول خصورهم - الذين اعتادوا لبس الشروال، أيضاً الحطة البيضاء السمنية، التي كان الرجال يضعونها فوق رؤوسهم في فصل الصيف، وانتشرت في مناطق بعلبك والهرمل على نطاق واسع، وكذلك بعض مناطق الريف السوري على نطاق أضيق.

كما عرفت الصناعة آن ذاك ما يسمى بحماية المنتج، فلجأ أربابها لتطريز أسماءهم أو أسماء عائلاتهم ضمن أشرطة التطريز التي تزين القطعة، وغايتهم حماية منتجاتهم من التقليد، والدعاية لها.

صناعة الصوف

كانت من الصناعات الواسعة في المدينة، نظرا لتنوع منتجاتها، واختلاف مصادر موادها الخام، وضرورات الحاجة إليها خلال فصل الشتاء البارد. هذا وتندرج ضمنها صناعة العبي، البسط، وبيوت الشعر.

ارتبطت هذه الصناعة بحركة واسعة امتدت من المناطق الجبلية على الساحل السوري كبانياس ومناطق جبل الزاوية وجسر الشغور وأريحا، وصولا إلى سلاسل جبال لبنان، فضمن هذه المناطق كان يتم تأمين المواد الخام اللازمة، وقد احتكرت كل من عائلتي عبد الهادي والأسود هذه الصناعة.

بيوت الشعر

وتصنع من شعر الماعز، وقد ارتبطت نوعية الشعر المستخدم وجودته، بنوع الغذاء الذي يتناوله الحيوان، تمتاز جبال لبنان بارتفاع قممها، وهي تتفوق على جبال الساحل السوري بهذا، ما يؤدي إلى تلقيها كمية أكبر من الأمطار والثلوج أيضاً، نتج عنه توفر غطاء نباتي أكثر تنوعا أثر بشكل مباشر على غزارة شعر حيوانات الماعز ونعومته وزيادة طوله أيضاً، بينما تتلقى الجبال السورية كمية أقل من المطر ما جعل مراعيها أقل غنى وتنوع، فكانت شعور حيوانات الماعز فيها أكثر خشونة وأقل غزارة وأقل طولاً من سابقاتها، والإنتاج منه يصنف نوعاً ثانياً.

كان المحصول من الشعر يؤخذ إلى منطقة بانياس للندف والغزل، فقد انتشرت مغازله في تلك المنطقة، ثم ينقل إلى محلة باب هود في مدينة حمص حيث انتشرت أنوال صناعته، وقد نسجت هذه المشاغل الأنواع الجيدة منه، بينما نسجت الأنواع المصنفة كدرجة ثانية في مناطق أخرى بعيدة عن المدينة كجسر الشغور. أما أريحا فقدمت النوعين الثالث والرابع منه، وارتبط هذا بإجرة المشاغل التي كانت أكثر كلفة في باب هود، وأجور عمالها الأعلى نسبة مع غيرهم. هذا بالنسبة لجسم بيت الشعر من الجانبين والسقف، أما الخلف فكان يصنع من الأنواع الرديئة من شعر

الماعز ممزوجاً بأصواف الغنم، وينسج من قبل السيدات البدويات في أماكن إقامتهم، أو ما تقدمه بعض المشاغل البسيطة في قريتي زيدل وفيروزة، ومن هذه الأصواف كانت تصنع خيوط حياكة بيوت الشعر أيضاً.

وقد انقسمت تجارته بين داخلية لبت احتياجات البدو في البادية وكذلك بعض العائلات التي تملك الكثير من الأراضي الزراعية في المدينة يستفيدون منها إما كمضافة، أو لإيواء بعض العمال المؤقتين في القرى التي يملكونها، كآل الجندي، الجندلي، الدروبي، الموصلي، والأتاسي، وخارجية وصلت آفاقها إلى السعودية والخليج العربي، يأتي تجارهم إلى مدينة حمص للتبضع من هذه المنتجات التي كانت تتم بالتبادل أحيانا، حيث يبادل بعض التجار بضائعهم من جلود وشعر الإبل والتمور بما يحتاجونه من منتجات المدينة.

العباءة

تصنع العباءة من وبر الجمل، ويعتبر البدو الرحل في مناطق السخنة وتدمر من أهم مصادره، وكذلك السعودية، حيث دأب هؤلاء على إحضار بضائعهم من الشعر بأنفسهم أول فصل الصيف بعد حلاقة إبلهم لتخفيف قيظ الحر عنها، وتباع البضاعة إلى تجار الجملة أولا، ثم يتولى هؤلاء عملية بيعها لأصحاب المشاغل في كل من صدد وقراها، ومنطقة القريتين التي انتشرت بها أعمال ندف الشعر وغزل الخيوط، كذلك مشاغل نسيج قماش العباءة، وقد قدمت القريتين أفضل أنواع النسيج تلتها صدد في هذا المجال، أما الأنواع الرديئة منه فكان يتم نسجها في قريتي "زيدل وفيروزة" المتاخمتين لحمص، وعرف النوع الأخير بسماكة نسيجه وخشونته أيضاً، وقد صنعت منه القطع الرخيصة الثمن. هذا بالنسبة لأعمال النسج، ما يتعلق بالتفصيل والحياكة فقد احتكرته عائلتي الأسود وعبد الهادي، وكانت تتم في المنازل، تقوم بها سيدات متخصصات بالتفصيل والحياكة وما يليها من التخريج والتخريم، حيث يضاف التطريز بخيوط القصب والحرير إلى القطعة – معظم السيدات كن من الطائفة المسيحية اللواتي اشتهرن بمهارتهن بالأعمال اليدوية –، وتصنف هذه الأنواع درجة ثانية، بينما يتولى خياطون رجال العمل في القطع المصنفة كنوع أول. وقد توفرت معامل خاصة تصنع خيط التخريج في المدينة، لكنها أنتجت خيوطاً صنفت كنوع ثان استخدمت للقطع

الرخيصة، أما النوع الأول من الخيوط فكان يستورد من حلب التي أنتجت أنواعا فاخرة منه، وحتى سنوات قليلة مضت كان لايزال أحد المعامل القديمة في حمص يقدم للسوق احتياجاته من هذه المادة مع فارق استخدام الخيوط الصناعية بدلا من الحرير الطبيعي الذي أنتج قديما.

هذا من حيث الصناعة، اما التجارة فكانت بشكل عام إفرادية، تلبي حاجة الطلب المحلي مع الريف المجاور فقط، اما تجارة الجملة فكان يقوم بها تجار من دير الزور، الرقة، الحسكة، يقصدون حمص لهذه الغاية فيختبرون جودة المنتجات أولا ثم يقررون الشراء، أو يعزفون عنه، إضافة إلى بعض الأفراد من السعودية الذين دأبوا على مقايضة بعض بضائعهم بأنواع العباءات التي تحظى بإعجابهم من الأصناف الجيدة.

البسط والسجاد

اعتمدت هذه الصناعة على أصواف الغنم، وقد تركز معظم الإنتاج في الريف فأنتجت صدد أنواعا جيدة من البسط – ج بساط – وكان الإنتاج يتم فيها بكافة مراحله، كالندف والغزل وصباغة الخيوط ثم عملية النسج، وقدمت المنطقة البسط ذات اللون الخمري الشهيرة – أصبحت الآن مطلوبة جداً في أعمال الديكور الحديث – ولم تقدم مدينة حمص سوى بعض الأعمال الفردية التي تتم في المنازل. أما صناعة السجاد التي اعتمدت أصواف الغنم أيضاً فاشتهرت بها كل من مناطق صدد والقريتين وكذلك قرية الزارة إلى الغرب من حمص بخمسين كيلومترا وكانت تتم في المنازل من قبل السيدات اللواتي كن يقمن بكافة مراحل العمل، ويتبعن نماذج معينة حفظنها من الرسوم غلب عليها اللون الخمري أو الكحلي القاتم مع دخول اللونين الأبيض والأخضر بشكل ثانوي وضمن الزخرفة فقط، أما الأطوال فكانت (ثلاثة أمتار طول مع متر عرض). وكانت تباع للفقراء ومتوسطي الدخل، بينما حرص الأغنياء على اقتناء السجاد الإيراني المستورد من قبل تجار دمشق وحلب.

وقد عمل في هاتين الحرفتين كل من عائلة الجسري والمعصراني الذين كانوا يملكون انوال العمل، ويؤمنون الصوف الخام، ثم ينقلون بضاعتهم إلى المدينة لبيعها، ولم تعرف المدينة سوى عدد محدود من العاملين بهذه الحرفة.

صناعة الجلد

وكانت من الحرف الهامة في المدينة، تنوعت مصادر المادة الخام التي يحصلون عليها، فالغنم يأتي أولا من مخلفات استهلاك المدينة لمادة اللحم، وكذلك ما يحضره البدو الغنامة من الجلود الخام المتوفرة لديهم في الصحراء شرق المدينة، البقر من الفلاحين الذين دأبوا على تربيته في قراهم، والماعز من المناطق الجبلية على الساحل غربا، وجلود الإبل من بدو البادية، يضاف إلى هذا موقعها على ضفاف نهر العاصي كمصدر غني بالمياه اللازمة لهذه الصناعة، وتمر هذه الصناعة بعدة مراحل اعتبرت كل منها حرفة خاصة، كان منها:

الدباغة

اعتبرت حمص واحدة من مراكز الدباغة الهامة في سورية، عمل فيها عدد كبير من العمال وصل فترة ازدهارها إلى ما يقارب المائتي عامل، وتركز العمل فيها في منطقة "الحصوية" إلى الشمال قليلاً من المدينة لسببين الأول أن جريان وتدفق مياه النهر في هذه المنطقة يعتبران مثاليان لأعمال الدباغة، وضفافه مناسبة لإقامة مساطب العمل، ثانيا، وجود هذه المنطقة خارج حدود المدينة وبساتينها التي تروى من النهر، فلا تتلوث الخضار، أو مياه الشرب بالمواد الكيميائية المستخدمة، فالدباغة في إحدى مراحلها يستخدم فيها مادة الزرنيخ الشديدة السمية.

انحصرت عملية الدباغة بالرجال فقط، وتتم بتمليح الجلود الخام ثم لفها مدة ثلاثة أيام، ثم تفرد في الشمس مدة يوم أو يومين، بعد ذلك تنقع بالماء وتغسل بالصابون لإزالة ما علق بها من أوساخ، وتملح وتضاف الشبّة بكميات مناسبة، وكان الجلد الواحد يستهلك نصف كيلو من الملح ونصف كيلو أيضاً من الشبّة، يلف بعدها لثلاثة أيام أخرى ثم يفرد وينشر بالشمس مدة يوم أو ثلاثة، ولهذا علاقة بدرجة حرارة ورطوبة الجو المحيط، بعدها يخمر مدة شهر كامل، ثم يفرد ويرش بالماء ويسحب بالجدابة والدفق – أدوات تستخدم في العمل – لمنحه الطراوة

المطلوبة، ثم يلف على نصب الدكاية، وهي نصب من ثلاث خشبات، بعد ذلك تبدأ المرحلة الأخيرة وهي حك وجه الجلد الداخلي بأداة تسمى القزق - قطعة من الحديد وزنها نصف كيلو غرام توضع على الكف وأصابع اليد تزال بواسطتها البقايا العالقة على الجلود من جسم الحيوان - لإظهار وجه الجلد الصافي ويدهن بالمغرة ويجفف ليوم واحد، ثم تدهن لحمة الجلد بنوع من الزيت المعدني المحروق لصنع طبقة عازلة تحمي لابس القطعة من المطر.

هذا فيما يتعلق بدباغة الجلود المراد المحافظة على شعر الحيوان فيها، أما الجلود المراد نزع الشعر عنها فتضاف مادة الزرنيخ والكلس إلى الشبة والملح، ثم يمر الجلد بالمراحل السابقة الذكر دون إضافة الزيت إليه.

الأحذية

قامت على الجلود بعض الصناعات المحلية البسيطة، تصدرها صناعة نوع من الأحذية حمراء اللون كانت سائدة في معظم مدن الشام، ويتم صبغ الجلود بلون أحمر أولا ثم يفصل الجلد وفق المقاس المطلوب، أما نماذج العمل فاقتصرت على موديل واحد مغلق يصلح لفصل الشتاء والصيف على السواء، وله مقدمة رفيعة ومرتفعة كانت تلاقي إقبالاً من الفقراء بينما أنف الأغنياء ارتداءها.

الأدوات الموسيقية

وهي من أهم الحرف التي قامت على صناعة الجلود، فالأدوات الموسيقية الإيقاعية كانت مطلوبة جدا، كالطبول، الدف، المزهر، والدربكة، وبعضها كالمزهر لم يستخدم في الحفلات والأفراح فقط بل أيضاً لدى أداء بعض طقوس الطرق الصوفية التي انتشرت بشكل واسع في المدينة إبان الاحتلال العثماني. فتصدرت صناعة المزاهر هذه الحرف وكانت الأنواع الجيدة منها تصنع من جلود الغنم أو الماعز المجففة في الهواء بعيدا عن أشعة الشمس، فهذه الطريقة في التجفيف تحافظ على طراوة الجلد فيتمكن الصانع من شده بطريقة أفضل على قالب المزهر الخشبي، فتعطي الآلة صوتاً أكثر صفاء يتلاءم والطقوس الروحانية التي يؤديها المتصوفة، بينما استخدمت جلود البقر في صنع الطبول للحصول على صوت أكثر قوة.

لقد صدَّرت المدينة معظم إنتاجها من الجلود الخام، خاصة التي تستخدم منها في صناعة الأحذية والطنافس، وكذلك صناعة المفروشات رغم قلتها، إلى كل من دمشق وحلب، كما استوردت حماه من حمص بعض حاجتها من جلود الإبل اللازمة لها في صناعة نوع من الأحذية الصيفية اشتهرت بها.

وكما جرت العادة في تلك الفترة من التاريخ، مارست حرف الدباغة وتصنيع الجلود عائلات بعينها، وتوارثت العمل والإتجار فيها أيضاً، واشتهر منهم كل من عائلة، المشنتف، حوا، شميس، رمضون، رضوان، وكبريت أيضاً.

الفروة

من الصناعات الرائجة جدا، ما زالت مطلوبة حتى العصر الحالي، لما تمنحه من دفء لصاحبها أيام الشتاء القارسة.

وتصنف بأنها صناعة لطيفة تتطلب قدرا من الذوق الغير مبالغ فيه، مقارنة مع صناعة العباءة. تصنع الفروة من جلد الخروف فقط، ولها أنواع ترتبط بأنواع الجلود المستخدمة التي يحددها عمر الخروف. فالخروف ذي الأربع أشهر أو ستة يعطي جلدا كبيرا وسميكا له شعر طويل، وتسمى القطعة المصنوعة منه "رعياني" نسبة لرعاة الغنم الذين يشكلون النسبة الأكبر من زبائنها، وتصنف نوعا ثالثا.

النوع الثاني يسمى "الوردي" ويبلغ عمر الخروف المستخدم جلده شهر أو شهرين، وتستهلك الفروة الواحدة ما بين عشرة أو أحد عشر جلدا.

بينما يطلق على النوع الأول اسم "الطفالي" ويبلغ عمر الحيوان المستخدم جلده أياما فقط، يذبح عادة لامتناعه عن تناول حليب أمه، وطبعاً لا يستخدم لحمه للأكل، وهو من أفضل الجلود لرقته وخفة وزنه كما أن شعره قصير أجعد وناعم، تستهلك الفروة الواحدة أربعون جلدا لتنفيذها، وتصنع للخاصة من الزبائن، وتتميز بارتفاع سعرها الكبير.

وللفروة نماذجها تصدرها الفروة الكاملة ويبلغ طولها مترا وعشرون سنتمتر وكذلك عرضها، يبطن وجه الجلد بقماش أسود يدخل التخريم البسيط على طرفها الملامس للرقبة وأعلى الصدر، ويترك وجه الجلد المغطى بالشعر بلا تبطين ليواجه جسم لابسه. الصدرية وهي قصيرة وبلا أكمام يبطن وجهها الظاهر بقماش مقلم

وملون ويدخل التخريم على كامل أطرافها بشكل بسيط تزداد كثافته على الياقة وأعلى الصدر وكانت تصنع من جلود الدرجة الثانية، وكلتاهما مخصصتان للرجال، بينما ارتدت النساء البدويات القبطية فوق ملابسهن وكذلك فعلت بعض نساء الريف أيضاً، وهي لباس يشبه السترة حاليا، يصل طولها وسط الحوض ولها أكمام، وتصنع من جلود الدرجة الثانية كونها أخف وزنا ويغطى وجهها الظاهر بقماش ملون بلون أسود أو بني قاتم، وأحيانا يستخدم القماش الملون بألوان أكثر إشراقا ترغب بها نساء الريف فقط.

وقد عملت في هذه الصناعة كل من عائلتي المصري والسلمون، وفي أوائل القرن العشرين قدمت من حماه إلى حمص كل من عائلتي الفرا والحسن وكانتا تعملان بنفس المهنة.

صناعة النحاس

اعتمدت هذه الصناعة في تأمين مادتها الخام على الاستيراد الخارجي وكذلك على تجارة الجملة، فالنحاس كمادة خام غير متوفر في سورية، ونظرا لأهمية مادته في صنع الأدوات المنزلية الضرورية للطهي وإعداد الطعام وكذلك أدوات تناول الطعام، تم استيراده من قبل تجار من دمشق وحلب، استورده هؤلاء من إنكلترا وإيطاليا، وكانت حمص تحصل على حاجتها من هذه البضاعة عن طريق تجار جملة من المدينة، هذا وكانت تصل كألواح لها أطوال وسماكات محددة:

- ألواح مربعة (120 × 120سم^2)، وسماكة (5 مم) لغاية (1 مم) - ألواح دائرية يبدأ قطرها من (12 لغاية 15 سم) وسماكة (5 إلى 1 مم)
- شرائح مستطيلة (40 سم) عرض، و(10 متر) طول وسماكة من (1 مم) إلى (0.8 مم)

كان يتم تشكيل القطعة المطلوبة بالطَرق ثم اللحام لجمع أجزاء القطعة مع بعضها ويستخدم لهذه الغاية مزيج مادتي التوتياء مع التنكار - أعتقد أن التسمية محلية.

اهتمت صناعة النحاس بتلبية الحاجات المنزلية بالدرجة الأولى للمدينة والريف أيضاً، وكان لنمط الحياة السائد آن ذاك والعادات الاجتماعية دورهما في تحديد نماذج هذه الحرفة.

فصنع من النحاس، الصدر، الطشت، الصواني، ووعاء يسمى الأنغر، ويستخدم لسكب الطعام فيه، السطل، الطاسة، المنسف - وعاء يتسع لخروف مطبوخ مع الأرز - الملاعق، الشوك، ملاعق سكب الطعام بأنواعها، وحلل الطبخ وهي بأحجام متعددة، منها الصغيرة سعتها عشرة لتر والكبيرة وكانت الأكثر رواجا بينها والتي وصلت سعة بعضها (250 ليتراً) وأطلق عليها اسم "الدست"، ويكاد لا يخلو منزل منها وتستخدم لغلي الحليب يومياً، وللطهو في المناسبات الكبيرة وكذلك في غلي الملابس المطلوب تنظيفها - وهذا الوعاء لا يستخدم

للطهي. كما صنعت أوان سعتها (400 ليتر) كانت تستخدم لصنع مادة البرغل الذي يحضر في الأرياف، ويجلب جاهزا للمدينة بعد جرشه في المطاحن، وكان يصنع من هذا النوع عدد قليل من الأواني، إذ يقتنيها رجل واحد في القرية يؤجرها للآخرين لقاء مبلغ من النقود. إضافة إلى أدوات الاستحمام وتصنع بناء على توصية مسبقة من الحمامات العامة التي تحرص على تجديد أدواتها كل اربع أو ثمان سنوات. وكان الصانع يحرص على نقش اسمه عليها للدعاية.

ومن الأدوات الهامة كان (الكركي) وهو وعاء يستخدم لتقطير ماء الورد وماء الزهر أيضاً، وكذلك في تقطير العنب لصناعة خمرة "العرق" في الريف المسيحي.

هذا وكان بعض الصناعيين يقومون بإعادة صناعة النحاس القديم، فيعمدون لإذابة قطع النحاس وصبه كسبائك، ثم طرقه بمطارق ثقيلة، ثم متوسطة الثقل ثم أصغر حتى يصلون للسماكة التي يرغبون فيها، ومن ثم يشكلون قطعهم.

ونظرا لحاجة الناس الكبيرة لهذه الأدوات تولت العمل فيه عائلات كثيرة في المدينة، كان من أوائلهم عائلة الزيات، زيتون، الراهب، وطحلة. ثم تبعها كل من آل مندو، نحاس، عبد ربه، الشعار، باصيل، قيسون، حسون، بريجاوي، الزعيم، الصغير، وعبد العظيم. وتركزت معظم ورش العمل فيه في منطقة باب هود - أطلق عليها لاحقاً اسم شارع أبي العوف - أما مستوردي هذه المادة فعرف من تجارهم آل النحاس، الصفوي، وآل نعوم الذين كانوا يحضرون ألواح النحاس من دمشق أو حلب ثم يبيعونها للحرفيين في المدينة. أما عملية بيع وشراء أوان النحاس فتتم لدى الصانع نفسه، وفي مكان عمله، إذ يعمد هذا إلى عرض الأواني الصغيرة الحجم والجاهزة لديه على رفوف خشبية، بينما يرتب الكبيرة في زاوية يخصصها لهذه الغاية في متجره.

نقش النحاس

لم يكن النقش على النحاس حرفة مستقلة عن صناعة النحاس، بل نشأت واكتملت في المدينة على يد صانعي النحاس أنفسهم، إما لتزيين أوانيهم واكتساب

سمعة، وكذلك الحصول على أسعار أفضل، أو بناء على طلب الزبائن، وفي كلتا الحالتين، كان النقش فناً مستقلاً عن بقية الفنون الإسلامية، واستمد أسسه من الرقش العربي، وخضع خلال تطوره لذات المراحل التي سلكها تطور فن الرقش خلال مسيرته التاريخية. أما نماذجه فكانت متعددة، فهي إما هندسية أو نباتية أو دينية.

الهندسية، تصدرها اشكال النجوم، سداسية أو مثمنة، وأحيانا عشرية واثنا عشرية، تتضمن بداخلها نقوشاً نباتية متنوعة تملا الحقول الفراغية، وهنا يلعب ذوق النقاش دوره بامتياز، ومهارته بالعمل يحددها ابتداء الرسمة ونهايتها أيضاً بالحقل ذاته، وكذلك تماثل الحقول مع بعضها البعض، وقد يملأ النقاش الماهر مساحة سطح الآنية بكاملها بالزخارف المنسجمة مع بعضها مثل:

اللوزة، ويتألف من لوزة كبيرة تعتبر محور النقش، أو عدة لوزات تتضمن بداخلها وحولها أنواع أخرى من النقوش يكون معظمها نباتي.

عرق سليمي، تعاقب عروق نباتية على سطح الآنية ولا تدخل هنا الأشكال الهندسية في موضوع النقش.

الأشكال الحيوانية، حقول متتالية من الحيوانات محاطة بزخارف نباتية، يليها حقل آخر وهكذا.

مواضيع دينية وكانت مرغوبة جداً من الزبائن، والأكثر طلبا، وتقسم إلى، إسلامية تتألف من آيات قرآنية تنقش بالخط الكوفي الجميل والمطواع للزخرفة والتشكيل. مسيحية تتنوع المواضيع فيها بين نقش وجه المسيح، مريم العذراء، مار جرجس، وكذلك نقش الصليب. وتحصر المواضيع الدينية ضمن حقول خاصة، ويملأ الفراغ الباقي بنقوش نباتية، لمنح الوعاء المزيد من التألق والجمال.

وتتم عملية النقش بقلم حديد يشبه إلى حد ما الإزميل يطرق النقاش عليه بالمطرقة بمهارة، فيضع أولا نقاطا رئيسة يحددها بنفسه، ثم ينقش تشكيلا أوليا لما يريده، في المرحلة الثالثة يعطي الشكل المطلوب، ثم يملأ الفراغ المتبقي بما اختاره من النقوش التي حفظها أو ابتكرها. يلي ذلك نقش اسم الصانع مع رمزه الديني – مسلم أم مسيحي – بكثير من الأناقة ضمن تشكيل خاص يصممه لنفسه ويعرف من خلاله حتى ولو كان الشاري لا يتقن القراءة.

وقد شمل النقش كافة الأواني كحلل الطهي، صدور الطعام، الصحون التي عرفت محليا بالأنغر، المناسف، طاسات الأكل (الزبادي)، أيضاً زبدية صغيرة وخاصة، تصنع لإزالة آثار الخوف عن قلوب النساء والأطفال، فيملأ سطحها الخارجي بكامله بالآيات القرآنية، ويربط بها تسع وتسعون قطعة نحاسية صغيرة جداً تنقش عليها أسماء الله الحسنى، اعتادت الكثير من البيوت اقتنائها، وتسمى طاسة الرعبة. اما أدوات الزينة فاقتصرت على نقش قناديل الإنارة بعد وصول مشتقات النفط إلى البلاد، وغابت عنها المزهريات.

الصناعات الغذائية

قامت في قلب المدينة صناعة الدبس كواحدة من أهم الصناعات الغذائية خلال القرن التاسع عشر، وهو مادة غذائية مرغوبة من مختلف أطياف المجتمع، تصنع من عصير العنب بعد تخثيره، وحتى وقت قريب كانت لا تزال المعصرة موجودة بالقرب من الأسواق القديمة، وتقوم بمهامها. كذلك مادة الطحينية الهامة للمطبخ الحمصي، كانت تستخرج في المدينة من الفستق السوداني، وتقوم عليها صناعة نوع من الحلاوة تسمى حلاوة بطحينة، مازالت صناعتها قائمة حتى الآن في المدينة مع إحداث تطوير جيد عليها أهمه استخدام زيت السمسم الأقل كثافة، - السارج - بدلا من زيت الفستق، لكن الأهم من كل هذا كانت مطاحن الحبوب التي شكلت منشآت صناعية هي الأكبر في زمنها، وأقيمت أبنيتها على نهر العاصي أو سواقي المياه الغزيرة، كونها تدار بفعل تدفق الماء، وكانت هذه المطاحن بمثابة رئة للمدينة تؤمن بواسطتها مادة الطحين الحيوية لإنتاج الخبز، وكذلك مادتي البرغل بأنواعه المختلفة، فالخشن منه يستخدم للطبخ، والناعم لصنع عجينة الكبة، إحدى أشهر وأهم المأكولات في المدينة، والناعم جداً يستخدم لصنع عجائن خاصة من الكبة التي لا يدخل اللحم ضمن مواد تحضيرها، يرغب به الفقراء لرخص ثمنه، وكذلك المسيحيون أثناء فترات صومهم.

ما سبق يشير إلى أن المطاحن جميعها تمركزت خارج أسوار المدينة، لوجود مصادر المياه المتمثلة بنهر العاصي والساقية المجاهدية.

وسأورد الآن تعداداً بسيطاً لأسماء بعض هذه المنشآت دون التعمق بالدراسة، كونها أخذت نصيبها من البحث.

1- مطحنة الخراب
2- مطحنة الجديدة
3- مطحنة الميماس (الغزالة)
4- مطحنة السبعة

5- مطحنة الدنك

6- مطحنة الناعورة

وأخيراً نضيف إلى هذا صناعة الحلويات التي اشتهرت فيها المدينة، وكانت جزء من طقوس احتفال خاص بها فقط يسمى خميس الحلاوة، تشارك فيه المدينة بكافة طوائفها، ويصادف التوقيت الخاص بهذا العيد فترة صيام الطائفة المسيحية، فتصنع الحلويات التي تناسب صيامهم فقط، ويتجنب الصناع بكافة طوائفهم إدخال المواد الحيوانية ضمن مكونات التحضير، ومن أصنافها الحلاوة الخبزية، السمسمية، البشمينة، حلاوة بطحينة.

الخاتمة

هذا ما هدم من حمص، تاريخ وذاكرة، ماذا بقي اليوم، لا أحد يدري، فالدخول إليها محرم، والخروج منها أيضاً، والنظر، والحديث، كل ما يتعلق بها يدخل ضمن المؤامرة على الوطن، باستثناء تدميرها على رؤوس ساكنيها فهو من أجل الوطن. في زمن الحرب يسهل قلب المعادلات، لكن حين يصبح الأبيض أسوداً، والأسود أبيض يسقط اللثام وتظهر الحقائق كما هي، وقد سقطت في سورية حتى ورقة التوت.

ما الذي بقي الآن من المدينة القديمة، قلة يملكون الإجابة على هذا السؤال، لكنه يبقى جوابا مؤقتا طالما أن آلة التدمير ماضية في عملها، وفي كل يوم نسمع عن تهدم بعض أبنيتها، وتتوارد أخبار الانفجارات بداخلها، تارة هنا، وأخرى هناك... ووسط هذا الأتون المستعر بالحقد والتسلط المريع لم يفطن أحد بأن المدن ليست كالبشر يمكن طمسها بجرة قلم، أو محوها بقنبلة أو متفجرة، المدن غير ذلك هي بحر يمكن اقتطاع أو ردم جزء منه، لكن لا يمكن تحويل مساره، أو محوه عن خارطة الوجود دون أن يتسبب الفاعل بأذية نفسه أولاً، أو هلاكها.

فما الذي حدث بحمص حتى آلت الأمور إلى ما يعرف الآن بحمص المنكوبة، الكثيرين لا يعرفون أن مأساتها ولدت فجر 17-4-2010، فبعد محاولات عدة من الإضرابات والعصيان المدني قررت المدينة الاعتصام في ذكرى الجلاء، ففي اليوم الذي سبقه كانت قد فقدت سبعة من أبنائها دفعة واحدة، فآثرت المدينة ألا تبكي بل أن توصل صوتها للعالم أجمع، وهكذا احتشد سكانها مع الغروب في أكبر ساحاتها، وخرج الجميع، ورفدها من الريف المجاور والريف البعيد عدد لا يحصى من المعارضين والمتعاطفين مع آلام المدينة، وممن يريدون أيضاً إيصال صوتهم للعالم، في الثانية عشرة ليلا طلب من النساء المغادرة للبيوت، فالرجال كانوا متوجسين ولا يرغبون بأن يربكهم وجود النساء، وقد تفهمت النساء هذا وغادرن مكان الاعتصام، لم يمض وقت طويل حتى اهتز المكان برمته، ففي الساعة الثانية فجراً، انفجرت الساحة بوابل من الرصاص المتجه مباشرة للواقفين فيها وفي الشوارع المحيطة، كانت الفرقة الرابعة

قد حضرت بالطائرات المروحية، وتصدرت التصدي للمعتصمين بنفسها، فر الجميع، وفي اللحظة ذاتها فتحت البنايات في الشوارع القريبة والبعيدة أيضاً أبوابها لتستقبل الفارين الذين لم يترددوا بالدخول، وهكذا أنقذ الكثيرون، أما من انطلق بعيداً فقد طارده رجال الأمن وهم يطلقون نار رصاصهم بكل اتجاه.

انبلج الفجر ثقيلاً على المدينة التي لم يغمض لها جفن وأطلت معه بواكير صباح صامت كالموت، وسجلت امرأة من نافذة منزلها أول مشاهدة لقافلة من سيارات القمامة تتجه نحو الجنوب، رتل من اثني وعشرين سيارة تسير الواحدة إثر الأخرى في سابقة لم تحدث من قبل، في السابعة صباحاً خرجت بعض النسوة إلى الساحة لمعرفة ما حل برجالهن وأبنائهن ممن لم يعودوا أو لم يتصلوا بذويهم، فوجدن الساحة مرتبة ونظيفة لكأن شيئاً لم يحدث بها، وأن أرواحاً لم تزهق على اسفلتها وأرصفتها، لقد أحضر رجال الأمن سيارات الاطفاء ونظفوا المنطقة من الدماء، واحتفلوا بانتصار سلاحهم الفتاك على أناس عزل لا يحملون أية أداة للدفاع عن أنفسهم ولا يملكون ما يمكن أن يبعد الموت عنهم. ولم يمض وقت طويل حتى هُددت النساء فعدن حزينات خائبات الرجاء. وبينما المدينة مشغولة بفجيعتها وإحصاء عدد مفقوديها كان العالم وكل وسائل الاعلام مشغولة بالحديث عن إلغاء قانون الطوارئ في البلاد، الذي صدر صباح ذلك اليوم المشؤوم.

لقد فقدت المدينة أكثر من سبع مئة شهيد بدقائق قليلة، بعض من غاب ولم يعد لمنزله عثر عليه معتقلاً في المراكز الأمنية المتعددة الأسماء أما البقية فلم تعد لمنازلها حتى الآن. بعد ثلاثة أيام عادت سيارات القمامة من رحلتها المريبة تلك لكن بشكل إفرادي، وفي إليوم الرابع استأنفت أعمالها المعتادة من جديد. وسط سؤال غير معلن من المكلومين "ترى هل نقلوا جثته بهذه السيارة، أم بتلك...؟

هذه الحادثة أذكرها احتراما للتاريخ فقلة يعرفونها، وكانت السبب المباشر لقيام المدينة بالشكل الذي وصلت بعض أبنائه للعالم، وهي لاتعدوا كونها غيض من فيض لم يكشف اللثام عن كل مجرياته بعد.

الآن هدمت أحياء بكاملها وخسر الناس بيوتهم ومحلاتهم التجارية ومعظم أرزاقهم، وخسرت المدينة شواهد تاريخها الصعب والجميل، وذكرى أيام كان الجمال فيها سيد المشهد.

المراجع

1- البرت حوراني. الفكر العربي الحديث في عصر النهضة. بيروت
2- د. عفيف بهنسي، جمالية الفن العربي، عالم المعرفة، العدد 14، الكويت
3- جنفر سكيرس، الثقافة الحضرية في مدن الشرق. ت، ليلى الوسوي، عالم المعرفة العدد 308، الكويت.
4- ابن الأثير. الكامل في التاريخ، القاهرة.
5- الطبري. تاريخ الأمم والملوك، القاهرة.
6- الشيخ طه الولي. المساجد في الاسلام، بيروت.
7- د، يحيى وزيري. العمارة الاسلامية والبيئة. عالم المعرفة، العدد 304، الكويت.
8- نعيم سليم الزهراوي. الجذر السكاني الحمصي. ج5
9- فيليب حتي. تاريخ سوريا ولبنان. ج1ج2
10- محمد ماجد الموصلي. الموجز في تاريخ حمص وآثارها، حمص.
11- د تغريد الهاشمي. حفريات شرق الجامع النوري. مجلة البحث التاريخي. العدد 5. محلية تصدر في حمص.
12- د عبد القادر الريحاوي. العمارة العربية الاسلامية وخصائصها. وزارة الثقافة، دمشق
13- محمود عمر السباعي. نعيم سليم الزهراوي. حمص، دراسة وثائقية، حمص.
14- محمد المكي بن خانقاه. تاريخ حمص، يوميات. تحقيق عمر نجيب العمر. منشورات المعهد الفرنسي، دمشق.
15- ليندا شيلشر، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ت. عمرو ودينا الملاح، دمشق.
16- ابن جبير. رحلة ابن جبير. بيروت.
17- الخوري عيسى أسعد. ومنير الخوري عيسى أسعد. تاريخ حمص ج1. ج2.
18- د فريد الشافعي. العمارة الاسلامية في مصر، عصر الولاة، القاهرة.

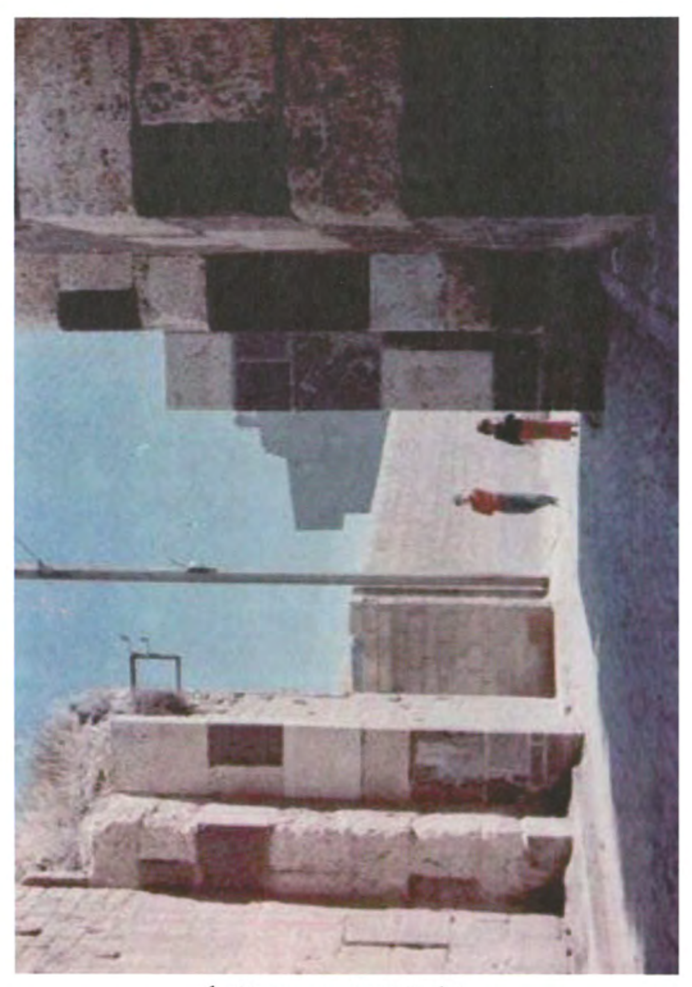
19- ميشيل ايكوشار، كلود لوكور. حمامات دمشق. منشورات المعهد الفرنسي، دمشق.
20- د مأمون عبد الكريم. الحوليات الأثرية السورية. العدد 43.
21- ابن فضل الله العمري. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.
22- من يوميات المطران أثناسيوس عطا الله. ت. نهاد منير سمعان، حمص.
23- ريم منصور الأطرش، الحرير في سورية.
24- د. عماد الدين الموصلي، ربوع محافظة حمص.

ملحق الصور

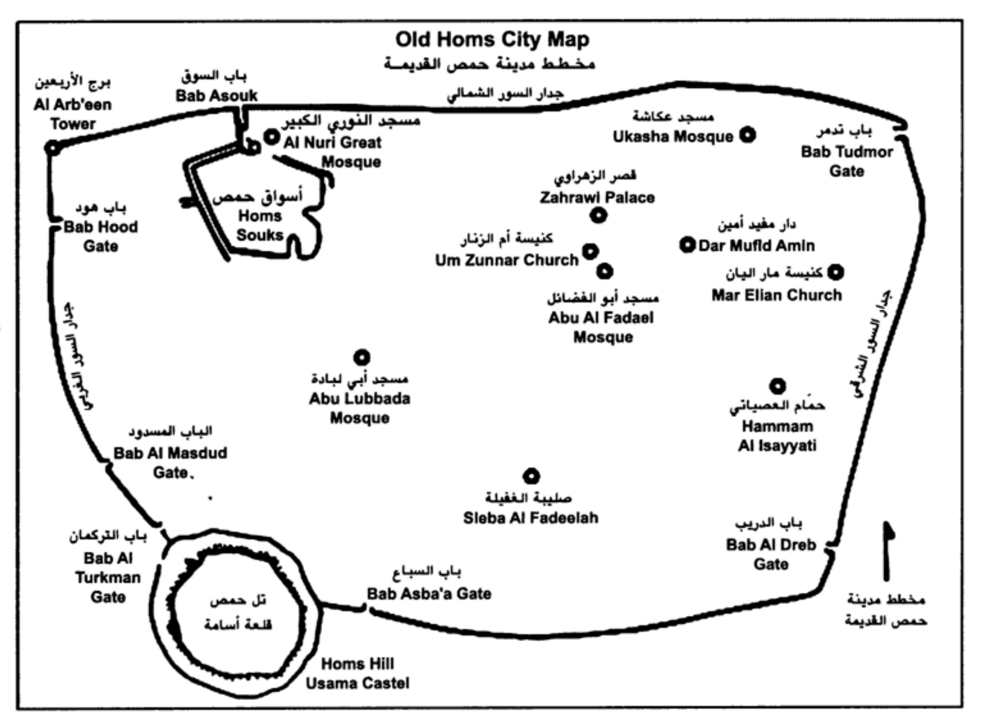
صور الفصل الأول



صورة رقم (1) شارع يلتف دائريا في مدينة أثينا القديمة



صورة رقم (2) الباب المسدود، حمص القديمة



الشكل (1) حمص القديمة (الإنترنت)

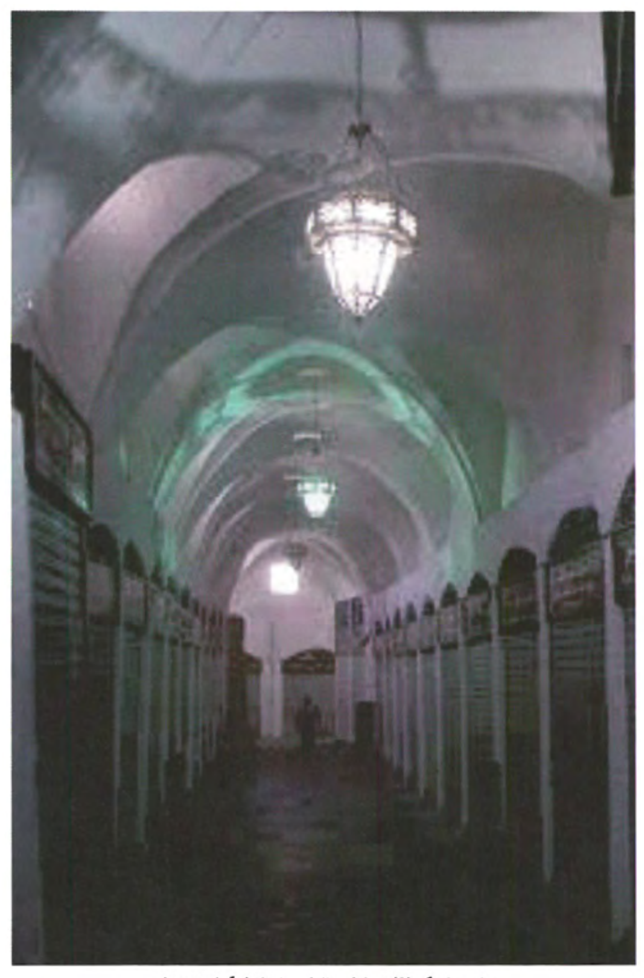


صورة رقم (3) الناعورة المقامة على الساقية المجاهدية (الإنترنت)

صور الفصل الثاني



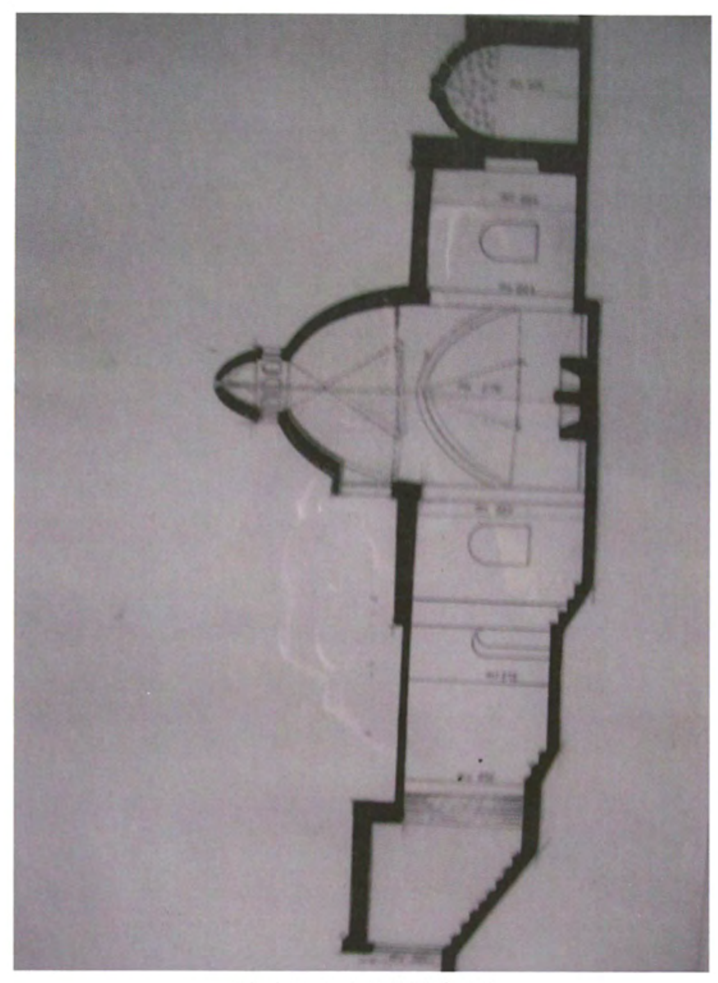
صورة رقم (1) سوق النوري، تسقيف بالتوتياء



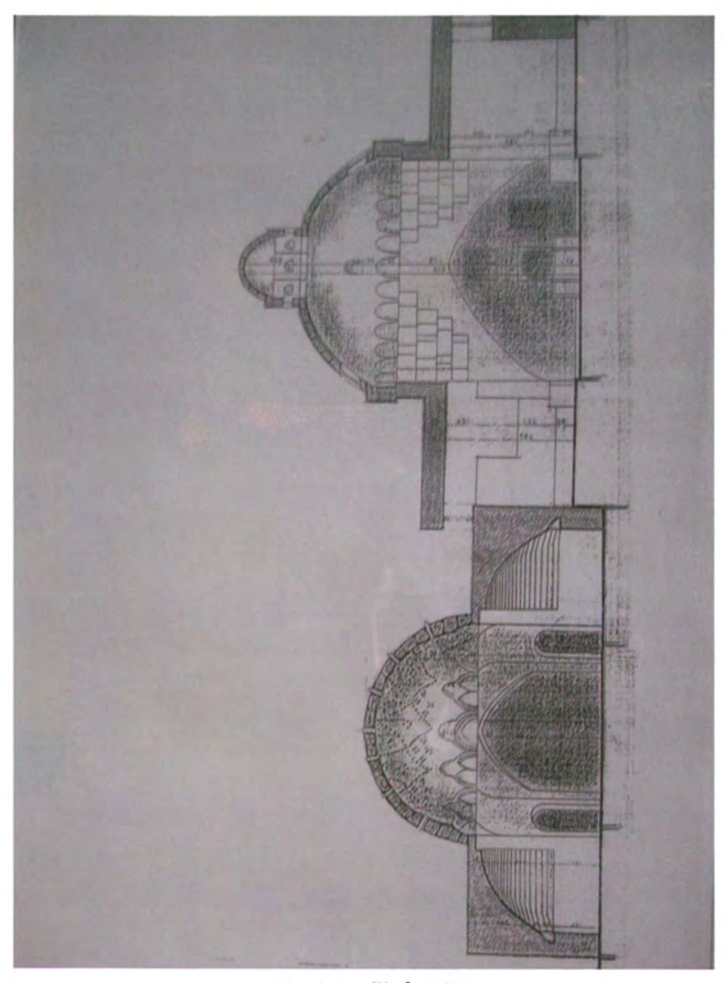
الصورة رقم (2) تسقيف بالعقود المتقاطعة (الإنترنت)



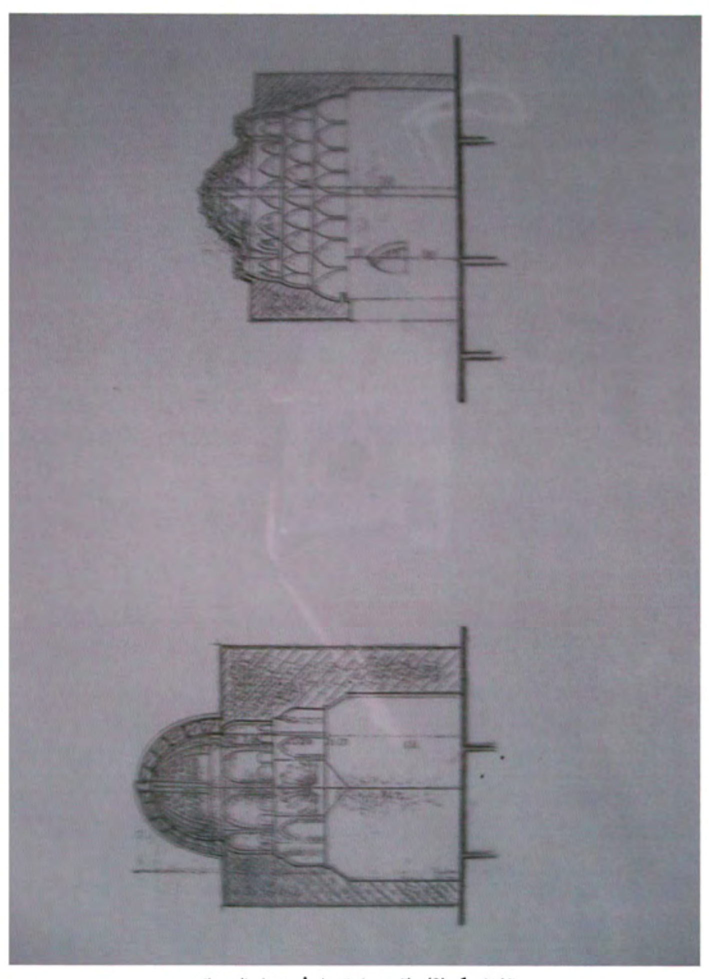
صورة رقم (3) حمام الباشا من الخارج (الإنترنت)



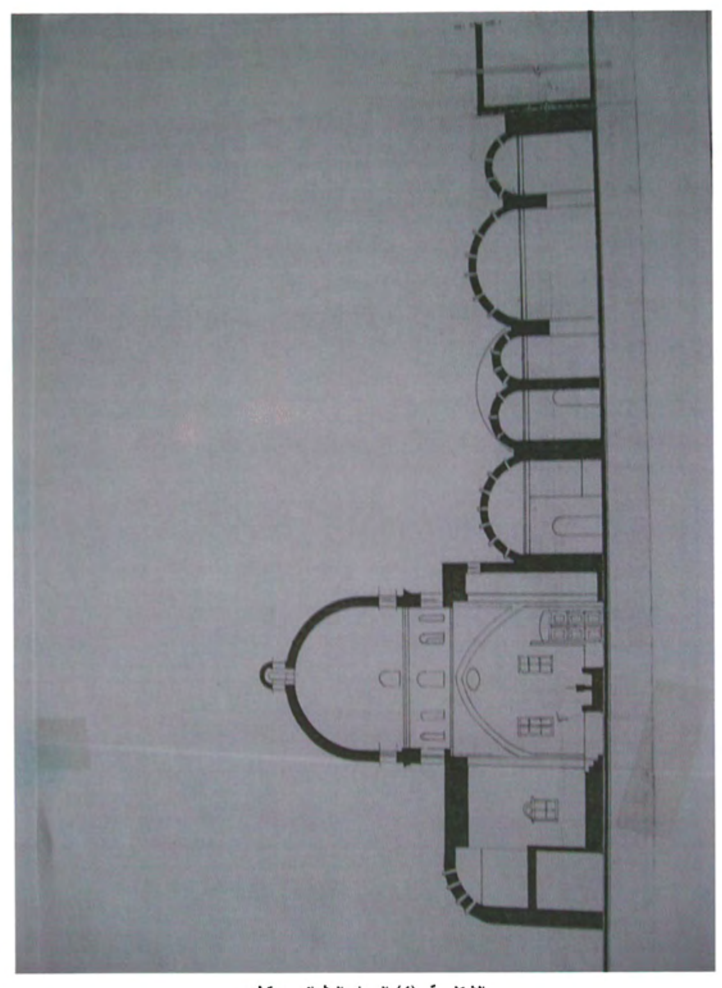
الشكل رقم (1) الحمام الصغير، مقطع طولي



الشكل رقم (2) حمام العصياتي



الشكل رقم (3) مقاصير استحمام في حمام العصياتي



الشكل رقم (4) الحمام العثماني، مقطع



الصورة رقم (4) الحنية الركنية، حمام العصياتي

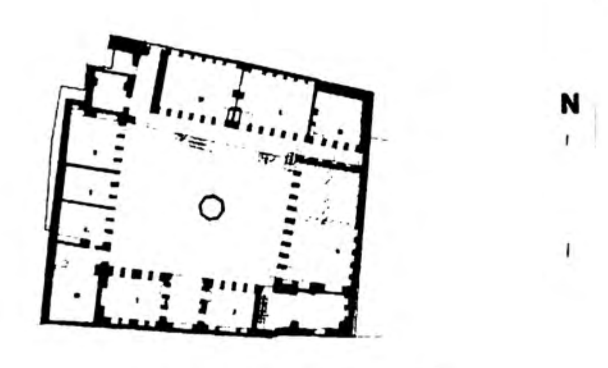


الصورة رقم (5) زرع قمريات الحمامات في جسم القبة

صور الفصل الثالث



الشكل رقم (1) نموذج منزل مؤلف من عدة أجنحة، قصر الحسيني. مسقط أرضي



الشكل رقم (2) نموذج منزل مؤلف من جناح واحد، بيت اليافي، مسقط أرضي



الصورة رقم (1) قصر العظم بدمشق



الصورة رقم (2) منزل سليمان فركوح، مطعم الآغا وقد أزيلت أشجار ونباتات الفناء



الصورة رقم (3) واجهة داخلية تتقدمها شرفة، تسقيف خشب ولبن



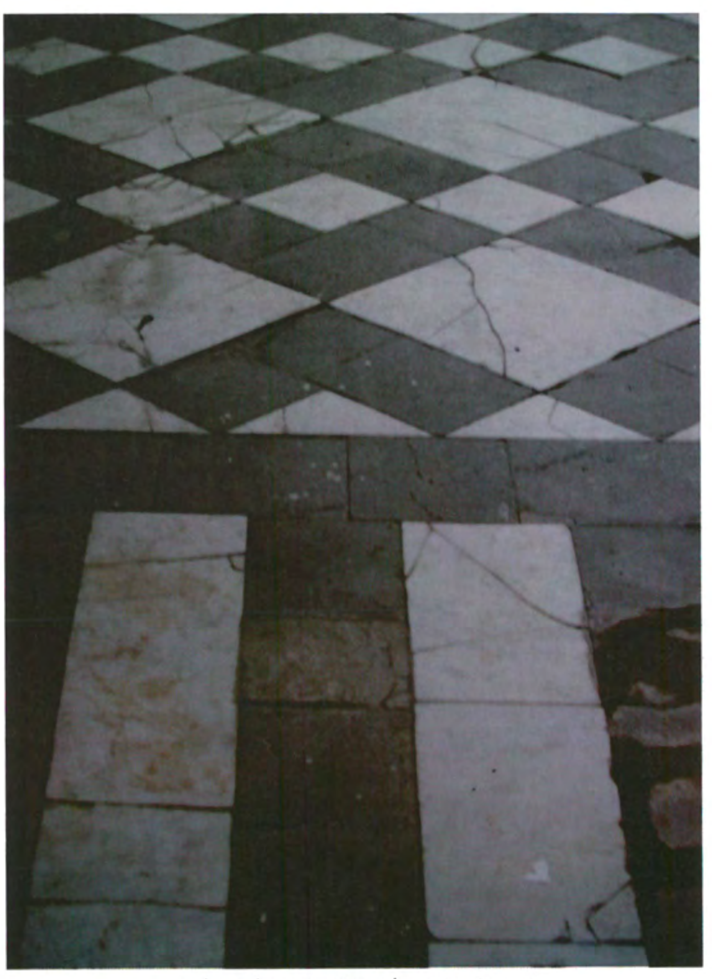
الصورة رقم (4) تفصيل العتبة



الصورة رقم (5) إيوان تقليدي في حمص، بيت الدرويي



الصورة رقم (6) ايوان وسط الجدار، بيت اليافي



الصورة رقم (7) كسوة أرض الفناء بالحجر الأسود والأبيض



الصورة رقم (8) جزء من فناء بيت في حمص



الصورة رقم (9) واجهة منزل بزخرفة بسيطة



الصورة رقم (10)، واجهة داخلية نموذجية، لاحظ الصنجات المزررة في الأعلى



الصورة رقم (11) واجهة نموذجية مع صنجات مورقة



الصورة رقم (12) قمريات مزركشة بحجر منحوت



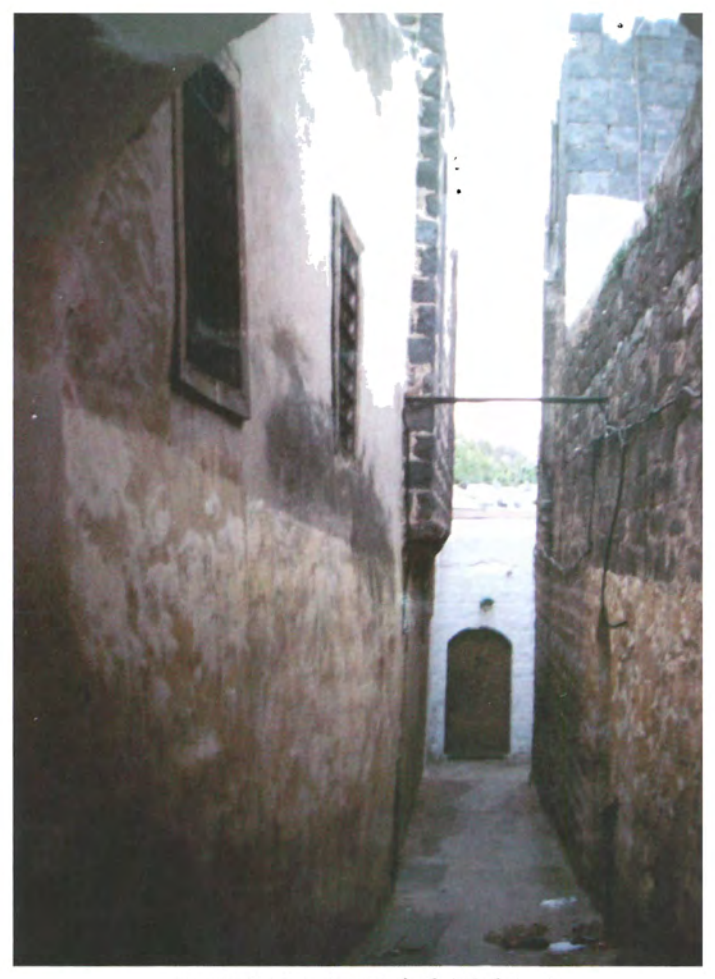
الصورة رقم (13) نموذج مسطبة



الصورة رقم (14) نموذج مسطبة



الصورة رقم (15) مسطبة بقوس مزركش بحجر منحوت



الصورة رقم (16) زقاق في نهايته باب مصفح بالتوتياء. حمص



الصورة رقم (17) الباب الخارجي لبيت آل الجندي



الصورة رقم (18) منظر عام للمدينة، القرن التاسع عشر



الصورة رقم (19) تسقيف الغرف بالخشب



الصورة رقم (20) مشربية تقليدية مكسوة بالتوتياء



صورة (21) استخدام التوتياء كإطار حماية لهيكل السقف الخشبي



الصورة رقم (22) إكساء خشبي مع زجاج ملون. بيت اليافي



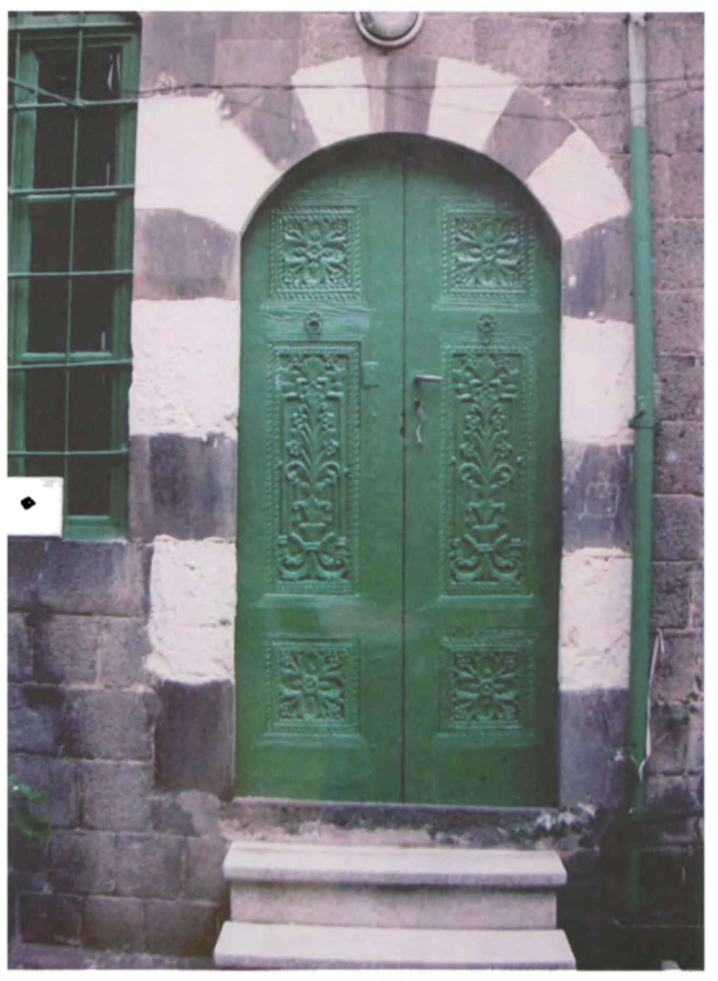
الصورة رقم (23) إكساء الكتبيات بالخشب. بيت اليافي



الصورة رقم (24) خزانة اليوك، بيت اليافي، لاحظ استخدام المرايا



الصورة رقم (25) زخرفة على الخشب، لاحظ القوس بصنجات مزررة في الأعلى



الصورة رقم (26) باب داخلي، زخرفة على الخشب



الصورة رقم (27) استخدام الزجاج الملون، بيت اليافي



الصورة رقم (28) كسوة الأرضيات بالرخام. بيت نقرور



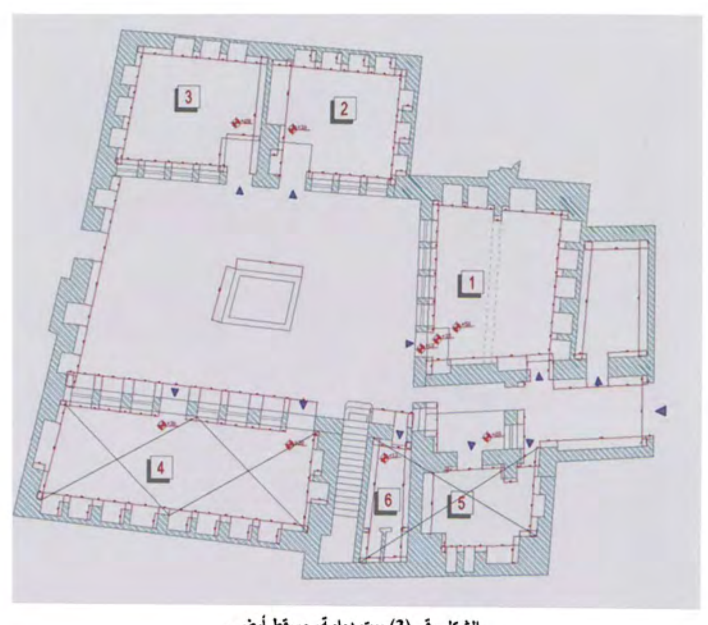
الصورة رقم (29) مصب رخامي بسيط. بيت دوامة



الصورة رقم (30) مصب من الرخام والخشب. بيت اليافي



الصورة رقم (31) مصب رخامي. بيت نقرور



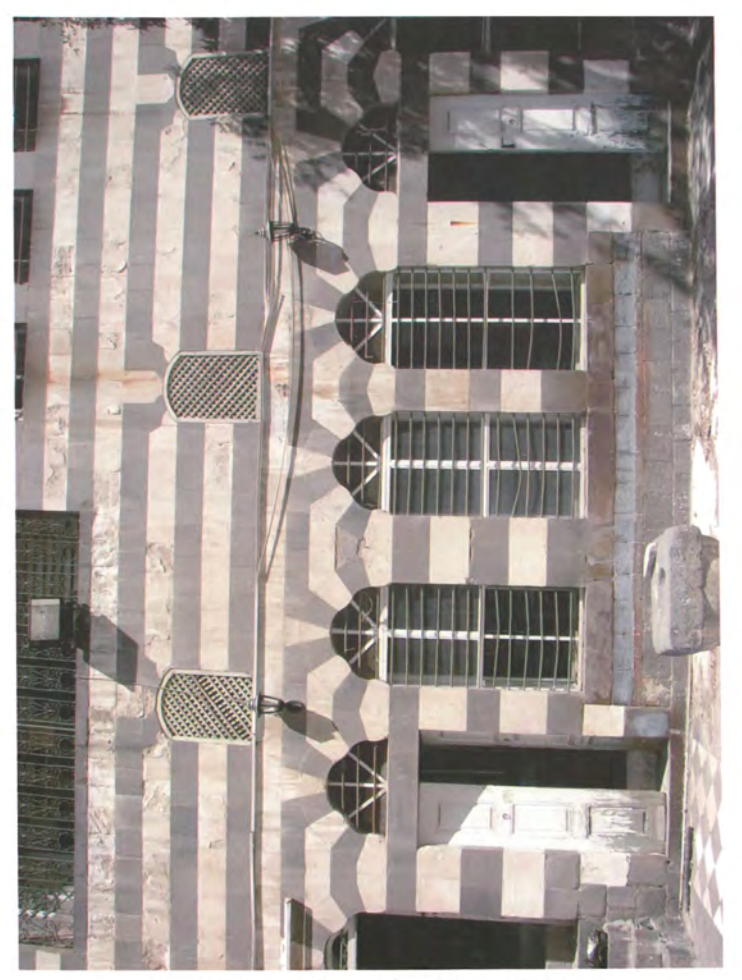
- الشكل رقم (3) بيت دوامة، مسقط أرضي



الصورة رقم (32) واجهة البناء المؤرخ بعام (1213هـ) بيت دوامة



الصورة رقم (33) واجهة البناء المؤرخ عام (1303هـ) بيت دوامة



الصورة رقم (34) واجهة الدور الأرضي من الجناح المؤرخ عام (1314هـ)



الصورة رقم (35) واجهة الدور الأول المؤرخ عام (1314هـ) بيت دوامة



الصورة رقم (36) كسوة خشبية على خلفية من المرايا داخل جناح المؤرخ بعام 1303هـ



الصورة رقم (37) الكتبيات وجزء من خزانة اليوك، بيت دوامة، الجناح المؤرخ بعام 1303



الصورة رقم (38) الكسوة الخشبية الجناح المؤرخ بعام 1314هـ، بيت دوامة، لاحظ الأقواس المتداخلة أعلى النوافذ



الصورة رقم (39) التسقيف في الجناح الثاني، بيت دوامة، لاحظ القمريات داخل الغرفة

صور الفصل الرابع



الصورة رقم (1) أسلوب رصف الشوارع والأزقة



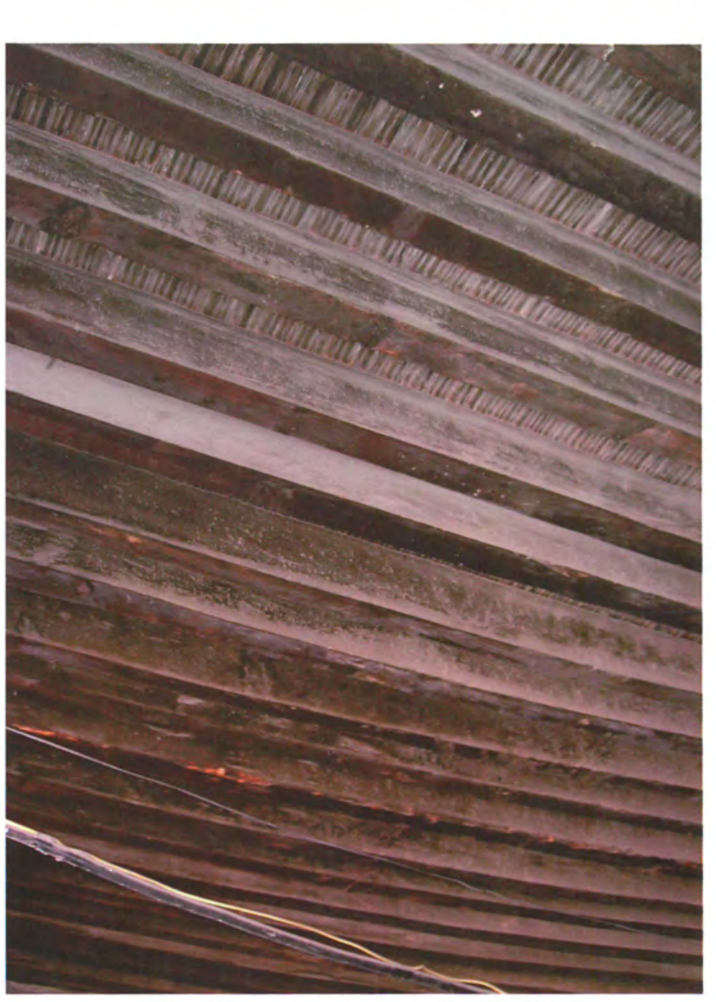
الصورة رقم (2) سيباط عز الدين، لاحظ رصف الطريق



الصورة رقم (3) سيباط القاضي



الصورة رقم (4) سيباط قصر الحسيني



الصورة رقم (5) تسقيف بالخشب وحصائر القصب، سيباط قصر الحسيني



الصورة رقم (6) سيباط الجندي، تسقيف بالعقود الحجرية



الصورة رقم (7) تسقيف السيباط بالواح الخشب وتدعيمه بدعائم حجرية

الجوائز الحديدية الظاهرة في الصورة وضعت فيما بعد

صور الفصل الخامس



الصورة رقم (1)، شرفة مئذنة جامع الزاوية



الصورة رقم (2) ضريح الملك المجاهد، الباب الرئيس



الصورة رقم (3) ضريح الملك المجاهد، المئذنة



الصورة رقم (4)، مئذنة جامع قصر الحسيني



الصورة رقم (5) جامع البازرباشي، صورة قديمة



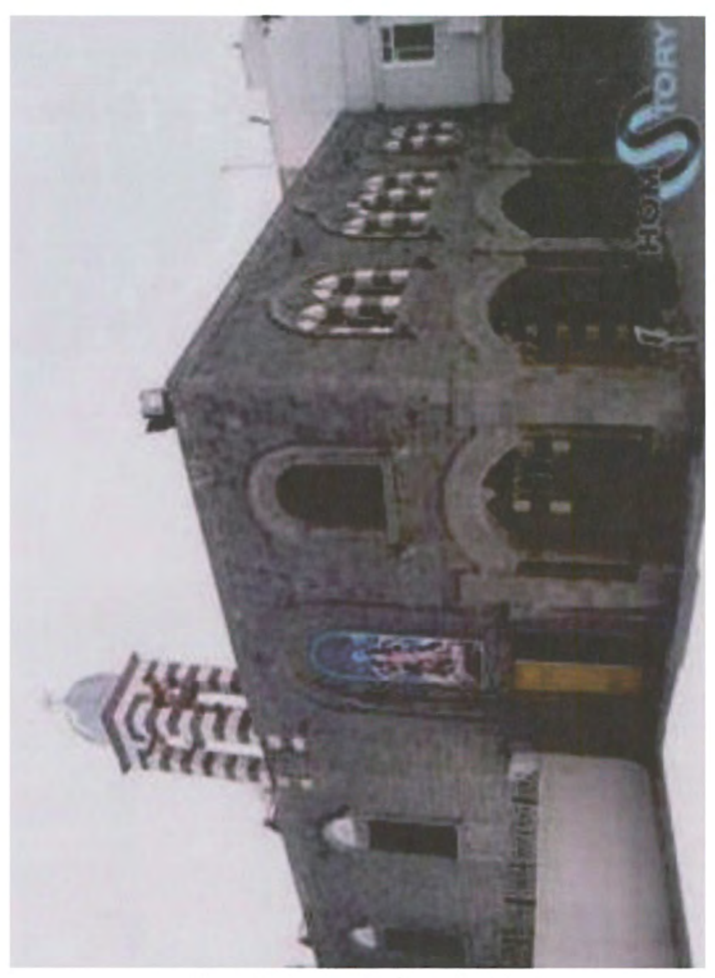
صورة (6) جامع البازرباشي، واجهة الحرم



الصورة رقم (7) منبر جامع البازرياشي



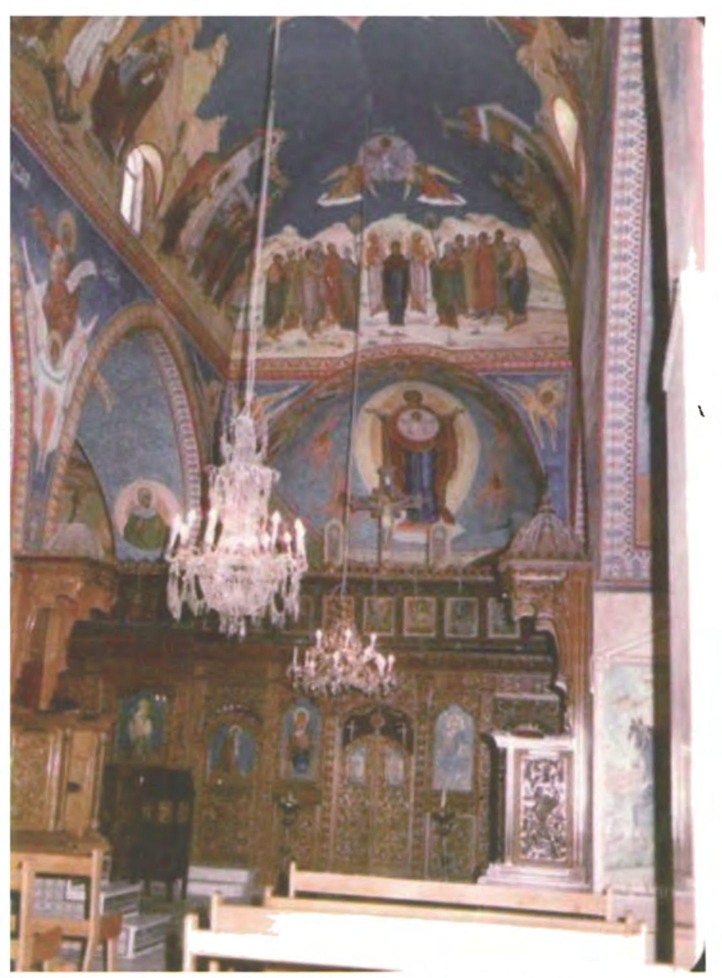
الصورة رقم (8) زنار العذراء مريم



الصورة رقم (9) كنيسة أم الزنار، البناء المحدث وبرج الجرس

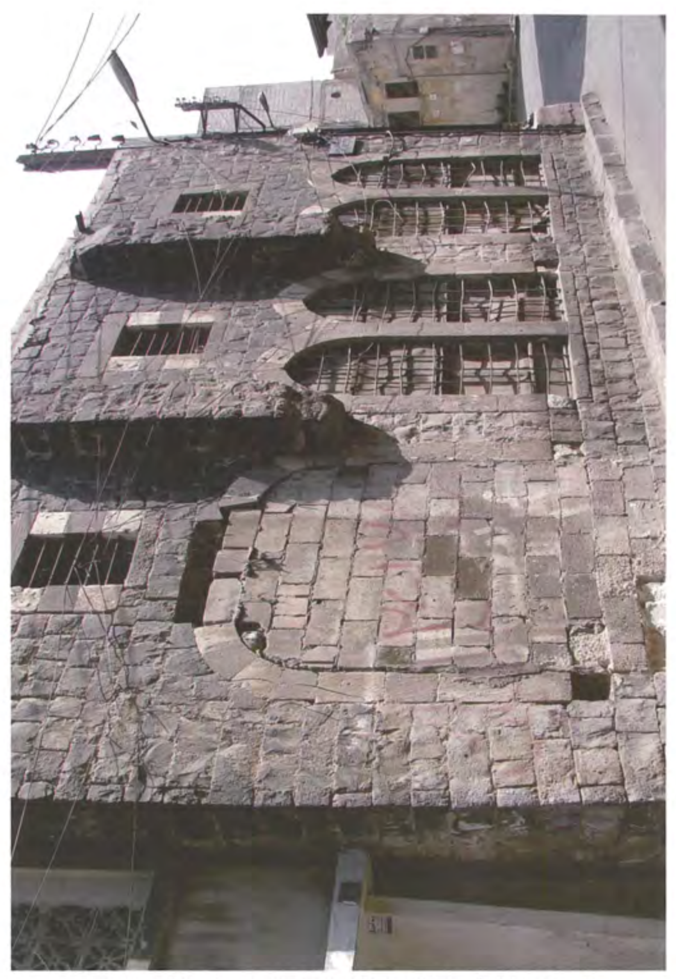


الصورة رقم (10) الرسوم الجدارية القديمة في دير مار إليان

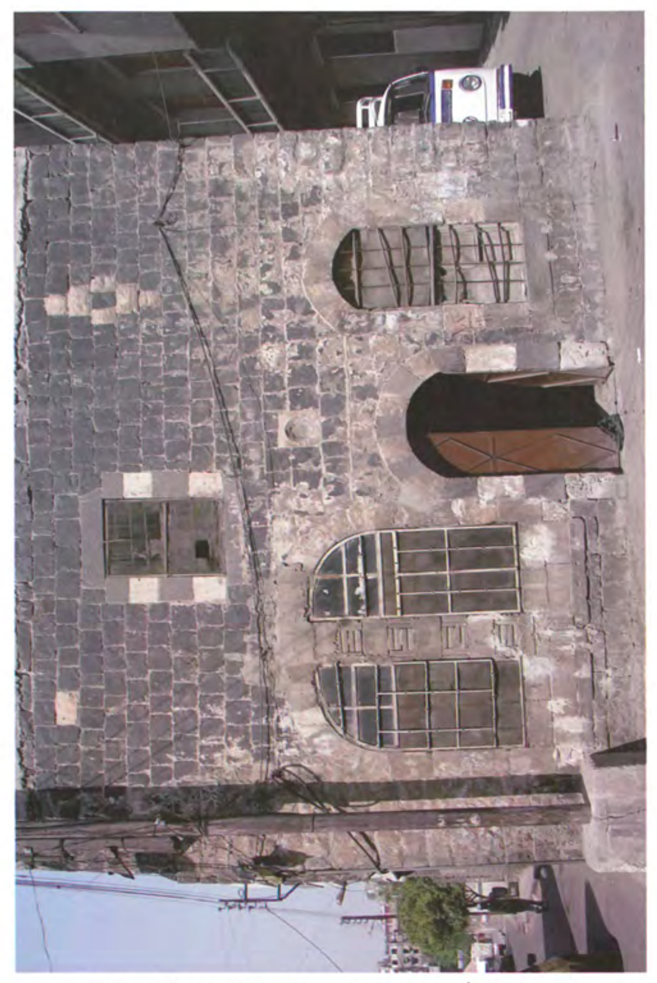


الصورة رقم (11) الرسوم الجدارية المضافة حديثا في دير مار إليان

صور الفصل السادس



الصورة رقم (1)، أحد المشاغل القليلة الباقية في المدينة، الباب الخاص بالبضائع



الصورة رقم (2)، أحد المشاغل القليلة الباقية في المدينة، الباب الخاص بالعمال

صور الخاتمة



كنيسة أم الزنار الآن



من المدينة القديمة بحمص الآن



أحد شوارع المدينة القديمة الآن



أحد الأسواق القديمة بحمص



الشارع المؤدي إلى كنيسة الأربعين

حمص... لما اكتملت

نداء الدندشي

- ولدت ونشأت في بلدة تلكلخ.
- حازت على ليسانس في التاريخ ثم دبلوم في الآثار - جامعة دمشق.
- عملت كأمينة لمتحف حمص خلال الأعوام 1988- 2009.
- قدمت عدد من المحاضرات معظمها يتعلق بعمارة مدينة حمص القديمة.

ان كنت أتحدث الآن عن حمص القديمة، فلأنها بالأصل لم تأخذ حقها من البحث والدراسة كمكان فريد وله خصوصية لا تضاهى، والأهم وجود دافع وشعور لا يمكن مقاومتهما في ظروف تواجهنا كسوريين، اذ لا حياد فيما يجري، ومن يملك أداة دفاع ما فعليه أن يستخدمها في المجال الذي يعرفه، أو يتقنه. والقاء الضوء على عمارة المدينة القديمة بحمص أمر ملح الآن، وأمانة ملقاة على عنقي طالما أني أملك المعلومة التي سيأتي دورها يوما ما. فالعالم يجب أن يعرف المدينة التي يسمع عن حصارها من عدة أشهر، ولا فكرة لديه عما يدك ويدمر من عمارتها، أيضا، يستحق أهل حمص مع هذا الصراع المرعب الذي يعيشونه ويعانون منه، أن يغتنموا من الزمن لحظة جميلة يشعرون فيها ليس بالأسف على مدينتهم وأرزاقهم فقط، لكن بالاعتزاز والفخر بعمارة وذوق أجدادهم، بعد أن كشفت، بعملي هذا، اللثام عنها وأظهرتها للملأ.


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



